السنة الخامسة (جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ هـ – يولية سنة ١٩٣٨ م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

تصدرها "جماعة دار العلوم"
كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات "صحيفة دار العلوم" فى جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق
السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشا
خارج القطر	٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر
إدارة سعيد سلطان ناظر بالخرنفش نمرة ٢٠ تليفون ٥١٥٢٢

"إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

مقدّمة

يشرفنا ، ويملأ نفوسنا ابتهاجاً ، وقلوبنا غبطة ، أن نفتتح السنة الخامسة ، لصحيفة دار العلوم ، بهذه الرسائل الثلاث ، التي تنطق بما نالت الصحيفة من رعاية سامية ، وعطف كريم .

كان خاتمة أعداد السنة الرابعة خاصاً بالزفاف الملكى السعيد ، نشرنا فيه كثيراً مما فاض على ألسنة أبناء دار العلوم شعرا ونثرا ، وتشرف برفعه إلى السدة الملكية وفد من جماعة دار العلوم ، ضم عدداً من أعضاء مجلس الإدارة ، ومعهم الأستاذ محمد نجيب حتاته ، مدير الصحيفة ، ورئيس الجماعة ، والأستاذ محمد على مصطفى ، رئيس التحرير . كما تشرفت لجنة الصحيفة بإهداء نسخ من هذا العدد إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الديوان الملكى ، وإلى كثير من رجالات مصر وساستها وزعمائها وأصحاب الرأى فيها ، نذكر من بينهم صاحب السعادة رئيس مجلس النواب ، بهى الدين بركات باشا .

وإلى القارىء بعض الرسائل التى شرفنا بورودها ، ننشرها اعترافا بجميل المنة ، وحمداً لله على توفيقنا فيما نقوم به من خدمة لغة البلاد ، باسم جماعة دار العلوم . م

ديوان كبير الأمناء

حضرة المحترم الأستاذ محمد نجيب حتاته ،

مدير صحيفة دار العلوم .

أتشرف بإبلاغ حضرتكم الشكر السامى ، على النسخ الثلاث ، التى قدمتموها ، أنتم وحضرة الأستاذ محمد على مصطفى ، رئيس تحرير الصحيفة ، إلى حضرتى صاحبى الجلالة الملك والملكة ، وحضرة صاحبة الجلالة الملكة نازلى .

وتقبلوا وافر الاحترام ،،،

تحريراً فى ١٤ مايو سنة ١٩٣٨ — كبير الأمناء

سعيد ذو الفقار

ديوان جلالة الملك

مكتب الرئيس

حضرة الأستاذ المحترم رئيس جماعة دار العلوم .

تحيتى إليكم ، وبعد فقد تلقيت « صحيفة دار العلوم » التى تفضلتم بإهدائها إلى، باسم جماعتكم الموقرة ، ويسرنى أن أشكر لكم ، ولحضرات إخوانكم ، هذه الهدية الأدبية ، التى أقدرها ، كما أقدر المعهد الكريم الذى تحمل اسمه . وأسأل الله تعالى أن يكلل جهودكم فى خدمة اللغة والأدب بالتوفيق والنجاح .

ومنى إليكم أطيب الأمانى ،،

٩ مايو سنة ١٩٣٨

المخلص

على ماهر

مجلس النواب

مكتب الرئيس

مصر فى ٢٩ مايو سنة ١٩٣٨

حضرة الفاضل الأستاذ محمد نجيب حتاته ،

رئيس جماعة دار العلوم .

أرجو أن تقبلوا وحضرات أعضاء جماعة دار العلوم مزيد شكرى ، على هديتكم الكريمة ، وهى العدد الرابع من «صحيفة دار العلوم» ، الذى جمع ما جادت به قرائح أبنائها من الشعر والنثر ، احتفالاً بالزواج الملكى السعيد .

ويطيب لى، بهذه المناسبة، أن أعبر لحضراتكم عما شملني، ويشملنى على الدوام ، من الغبطة ، كلما مررت بآثار جماعتكم المحمودة المجهود الموفقة العمل ، وأخص بالذكر ما توفرت عليه من عمل متواصل، فى خدمة التعليم ونشر الثقافة العربية

وختاماً أدعو الله أن يكلل على الدوام مجهوداتكم بالنجاح ، ويهىء لكم أسباب التوفيق فيما تقومون به من الخدمة العامة .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

رئيس مجلس النواب

بهى الدين بركات

قصيدة صاحب العزة

الأستاذ على الجارم بك فى عيد الجلوس الملكى

جمعت من فرع ذات الدل أوتارى ... وصغت من بسمات الغيد أشعارى
وعشت للفن أحيا فى بدائعه ... بين الظلال ، وبين السلسل الجارى
أشدو ، فان شئت أن تصغى لساجعة ... من الخلود ، فأنصت تحت أوكارى
كادت تزق يراعى الطير تحسبه ... وقد تغنى بشعرى سن منقار
قد علمته التغنى فوق أيكته ... ففاقها فى التغنى فوق أسطار
كأن داود ألقى عند بريته ... أثارة من ترانيم وأسرار
أعددته قبساً يذكى توقده ... عزم الشباب ، ويهدى ليلة السارى
ويكشف الأمل المحجوب ساطعه ... واليأس يغشى بأسداف وأستار
الشعر عاطفة تقتاد عاطفة ... وفكرة تتجلى بين أفكار
الشعر إن لامس الأرواح ألهبها ... كما تقابل تيار بتيار
الشعر مصباح أقوام إذا التمسوا ... نور الحياة ، وزند الأمة الوارى
الشعر أنشودة الفنان يرسلها ... إلى القلوب ، فتحيا بعد إقفار
الشعر همس غصون الدوح مائسة ... ودمعة الطل فى أجفان أزهار
الشعر للملك جيش لا يصاوله ... جلاد مرهفة أو فتك بتار
يغزو وينصر ، لا أشلاء معركة ... ترى ، ولا وثبات حول أسوار

إذا تخطر فى الأفواه تنشده غض الجفون حياء كل خطار
وإن أغار ، تنادى كل ذى هلع إلى الفرار وأودى كل مغوار
قد كان حسان جيشاً فى قصائده أشد من كل زحاف وجرار
وكان ملك بنى مروان فى أطم عال من الشعر، يرمى الشهب بالنار
وهل زهت ببنى العباس دولتهم إلا بأمثال حماد وبشار ؟
فقل لمن راح للأهرام يرفعها : الخلد فى الشعر لا فى رصف أحجار
كم حكمة فيه لا تفنى بشاشتها ومن حديث على الأيام سيار
الشعر للملك مرآة مخلدة على تعاقب أجيال وأدهار
صورت فيه سنا الفاروق مؤتلقاً يزدان باثنين : إجلال وإكبار
وصفته فاتن الألوان مزدهراً كأنما نقشته كف آذار

* * *

ملك من النور قد ضاءت دعائمه كأنما شيد من هالات أقمار
ودولة ركز الاسلام رايته فيها على طود تاريخ وآثار
وعاهل من صميم النيل نبعته أما ترى ليديه وكف أمطار ؟
أحيا النفوس بآمال تضاحكها فاليأس فيها غريب الأهل والدار
كأن أيامه والبر يغمرها صحائف الطهر فى إيمان أبرار
كأنما عهده والبشر يملؤه تبسم الشرق عن أنفاس أسحار
كأن ذكراه لما سار سائرها عبير دانية الظلين معطار
كأن أمداحه فى أذن سامعها مساقط الشهد من أعواد مشتار

كأن طلعته والشوق يرقبها وجه الصباح يحيي نضو أسفار

* * *

« فاروق » يازينة الدنيا وبهجتها وأسعد الناس فى ورد وإصدار
وابن الملوك الألى فلت عزائمهم من حد كل صليب الحد جبار
أقمار مملكة ، آساد ملحمة أملاك مرحمة ، صناع أقطار
من كل ندب بعيد الرأى مستبق إلى الجهاد مغار الفتل صبار
المجد أبقى لهم ذكرى مخلدة أعمارهم وصلت منها بأعمار

* * *

الشعب شعبك ، والأيام باسمة والدهر كالزهر فى صفو وإنضار
أحبك الشعب فانعم فى محبته فأنت ملء قلوب ، ملء أبصار
مُرْ، وانه فى الحق، فالأسماع مصغية فداؤك النفس من ناه وأمار
وارفع لواءك فوق الشرق تلثمه أفواه أودية فيه وأمصار

* * *

ذكراك فى الدهر آيات مطهرة تحلو بغن وترتيل وتكرار
شدوت باسمك حتى كدت من طرب أظنني ذا جناح بين أطيار
فان سمعت رنيناً كله عجب فالعود عودى والأوتار أوتارى
جلوسك اليوم أثمار المنى ينعت يا حسنها من منى خضر وأثمار
عيد به الأرض والآفاق مشرقة تمازجت فيه أنوار بأنوار

عيد كأن الليالى قد وهبن له ما فى الخليقة من يمن وأيسار
النيل فيه جرى على بشائره وينثنى بين أدواح وأشجار
إذا الربيع رمى فيه أزاهره جزاه بالتبر ديناراً بدينار
أو الحمائم غنت فوق مائجه حبا الحمائم تهداراً بتهدار

✡ ✡ ✡

يا كالىء الدين والدستور من جنف وحارس النيل من أوضار أكدار
وحافز الشعب يدعوه فيتبعه إلى النجوم جريئاً غير خوار
العلم للشعب ركن غير منصدع والشعب بالعلم صف غير منهار
اختارك الله للاسلام تنصره فكنت موئله يا خير مختار
عش فى القلوب فقد أعطت مقالدها وفى نعيم عميم الغيث مدرار

فى النقد الأدبى

الحقيقة فى الأدب

معناها - قيمتها - مقاييسها النقدية - جدتها - صحتها - صلتها بالأدب

بقلم الأستاذ أحمد الشايب
المدرس بكلية الآداب

- ١ -

يُطلق بعض النقاد على موضوع اليوم : العنصر العقلى فى الأدب — The intellectual Element in Literature — ويعنون به الحقيقة أو الفكرة التى يحتويها النص الأدبى بجانب العناصر الأخرى من لفظ، وخيال، وانفعال (عاطفة) . وقبل أن نسير فى البحث نحاول أن نبين هذا العنصر بالتمثيل له أولا . ثم ما نراه أصلح الأسماء له ثانياً . قال أبو العلاء المعرى :

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهة   وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيامُ حتى كأننا   زُجاجٌ ولكنْ لا يُعاد له سبكُ

أذكر أن هذا المثال قد مر بنا قبل اليوم، وإنما أذكره ثانياً لبيان هذا العنصر العقلى فيه حتى يكمل تحليله . ولا شك أن الانفعال الذى يثيره هذا النص فى نفوسنا هو السخط والتشاؤم بهذه الحياة . وقد استعان أبو العلاء على بعث هذه (العاطفة) بهذا (الخيال) الزجاجى كما قدمنا فيما مضى . فهذان هما العنصران اللذان مضى فيهما الكلام .

والآن نترك العاطفة والخيال، ونسأل عن ذلك الشىء الذى يدل عليه اللفظ دلالة وضعية : ما هو هنا، والإجابة عن هذا السؤال سهلة، فالمراد أن ضحك الناس خطأ، وحقهم أن يبكوا . لماذا ؟ لأنهم ألاعيب فى يد الأيام تهلكهم

بخطوبها ثم لا تعيدهم سالمين . هذا المراد – أو منطوق النص – هو الذى يسمى العنصر العقلى فى الأدب . وإنما دُعي كذلك ليقابل العنصر العاطفى ، والخيالى ، واللفظى ؛ إذ أنه ليس حزناً ولا سخطاً . وليس فنا من هذه الفنون البيانية التى أشرنا إليها فى باب الخيال . هو الذى تعود الناس أن يسموه المعنى مقابلا للفظ وهو الذى يطلق عليه النقاد المحدثون كلمة حقيقة Fact أو فكرة Thought أو الحق Iruth الذى يعد أساس المنشآت العقلية . فكيف نسميه ؟ لا يزال من إخوانى من يصر على أن يطلق عليه – المعنى – وهو بذلك يقابل اللفظ مجاراة للمتقدمين ، أو بعبارة أدق لبعض المتقدمين الذين لم يعنوا بهذه العناصر الأدبية الأخرى كالعاطفة والخيال . وإن أدركوا ما فيهما من قوة وجمال وأسأل هذا الفريق من إخوانى : إذا كان الأدب – كما قال الأقدمون عندنا – لفظاً ومعنى ففى أى القسمين نضع سائر العناصر ؟ فمنهم من يتوقف ، ومنهم من يقول : الأدب لفظ ومعنى وعاطفة وخيال . ويكون بذلك مدعياً أنه خلق أو وضع لفظين جديدين لعنصرين جديدين .

وعندى أنه لا حاجة إلى هذا كله ، ولا معنى لهذا الادعاء . وخير لنا أن ننصف المتقدمين إنصافاً حقا ، ثم نقوى الاتصال بهم من جهة ما وضعوا من مصطلحات ، وما أدركوا للأدب من عناصر .

خير لنا أن نقول : إن الأدب – كالكلام – لفظ ومعنى . وأن هذا المعنى ينحلُّ إلى عناصر ثلاث : العاطفة والخيال ، ثم الحقيقة أو الفكرة التى هى موضوع كلامنا الآن : وقد لحظ المتقدمون ذلك كله كما بسطته فى العدد الثانى من السنة الثانية لهذه الصحيفة تحت عنوان « بين اللفظ والمعنى » ، وعلى هذا الاعتبار أسير فى موضوع اليوم متكلما فى هذا العنصر الثالث من عناصر الأدب وهو الحقيقة .

– ٢ –

فى أية درجة نضع هذا العنصر العقلى بالنسبة إلى سائر العناصر الأدبية ؟ الأدب أدبان : نوع تكون الغاية منه التعليم وأداء الحقائق والاقناع كالتاريخ

والنقد الأدبى ، والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وهو الذى أسميه أدب الثقافة ، وصار يدعى الآن الأدب بالمعنى العام ، ونوع تكون غايته مع ذلك ، التأثير وإثارة الانفعالات ، كالشعر ، والقصص ، والخطابة . والوصف ، وأسميه أدب القوة — أو العاطفة — وهو ما يدعونه الآن الأدب بالمعنى الخاص .

فنى النوع الأول نجد هذا العنصر الحقيقى فى الدرجة الأولى ، إذ أنه الغاية المقصودة . والهدف الذى يرمى الكاتب الى نشره وإقراره فى عقول القراء ، وأما العاطفة هنا ، فتعد وسيلة تخدم الأسلوب لتبعث فيه حياة وقوة ، وتساعد بهذا على فهم الأفكار وثبوتها فى أذهان القارئين . . . والنقد الأدبى حينما يعرض لهذا النوع ، يحكم عليه أوله بناء على ما فيه من الحقائق والأفكار ، ثم لا ينسى مع ذلك مقدار ما صحب الحقائق من عاطفة تكسبها الروعة وقوة التأثير ، ويكون مثل العاطفة هنا مثل الشراب اللذيذ يذاب فيه الدواء ليسهل تعاطيه .

ولكن ما المقاييس التى يعتمد عليها النقد فى تقرير هذه الآثار الأدبية العامة ؟ ثلاثة : كمية المعلومات ، ودقتها ، ووضوحها ؛ فنحن ننتظر من الكاتب أن يزودنا من الحقائق بما يستطيع . وأن يؤديها صحيحة متمايزة الحدود والخواص ، ثم يصورها بأسلوب واضح يجعلها سهلة الفهم والادراك ، فاذا حاول النقد الأدبى التعمق فى درس هذه المقاييس وتفصيلها ، يكون قد تجاوز طوره ، وعدا حده ، إذ أن ذلك من مهمة علوم أخرى تعنى بها كالمنطق . والفلسفة ، والبلاغة ، فالأولان يعنيان بالحقائق وصحتها ، والثالث يدرس طرق التعبير السهل الواضح لكل فن من الفنون الأدبية ، وسنعرض لشىء إجمالى منه فى المقال التالى إن شاء الله تعالى .

وبعد ذلك لا يعدم النقد الأدبى مجالا ينفذ منه إلى هذا النوع من الأدب العقلى ، ذلك هو ما يلابس الكتابة من عاطفة . وأوهن درجة العاطفة هنا ، تراه فى ثقة الكاتب بما يقرر ، ثم فى عنايته بتوضيحه ، وأخيراً فى حرصه على إذاعته واتصاله بحياة الناس النفسية أو الاجتماعية ، فنجد ذلك يولد فى نفس الكاتب لذة وسروراً بما يكتب ، ويجعل للكتابة روعة ، وخفة وقع ، وشدة

تأثير ورواج ، ثم يكسب الأديب أنصاراً ومؤيدين ، ويهب لآثاره طابعاً فنياً يتجاوز به دائرة العلم الخالص إلى مجال الفن الجميل .

أما إذا أنام الكاتب عاطفته ، وأيقظ عقله معتمداً عليه وحده فى التعبير دون أن تلفحه حرارة الشعور ، كانت النتيجة أنك تقرأ له هيكلا عظمياً من الكلام لا تكسوه عضلات ولا أعصاب . وكان أحرى به أن يكون سجلا لتدوين هذا الحساب العقلى ، أو هو علم ليس غير .

وأجدنى — هذه المرة — حريصاً على أن أذكر بعض الأمثلة المعاصرة لتوضيح هذه الظاهرة . فهذا الأستاذ طه حسين فى كتابه — فى الأدب الجاهلى — أصدق مثال لهذا الأدب العقلى الذى يجمع إلى الحقائق والأفكار شعوراً صادقاً قوياً وهب لأسلوبه روعة وموسيقا لا تكاد تتحقق لغيره من الكتاب . وسبب ذلك ، فيما أرى ، صدق يقينه بما يكتب . وحرصه على نشره ، وعرضه بشىء من التحدى والاستفزاز ، حتى ليصح أن يدعى بالكاتب الذى يقع على الحقيقة العلمية الخالصة فيحيلها أدباً أو فناً بهذا الأسلوب الواضح القوى الجميل .

أما زميله الأستاذ احمد امين — فى فجر الاسلام أو ضحاه — فقد غلبت على آثاره الناحية العقلية ، واتجه حرصه الأول والأكبر إلى تقرير الآراء والقضايا العلمية مخلصاً لها ، فامتاز أسلوبه بالدقة والوضوح وإن أعوزته نغمات الموسيقى ، وروعة الجمال .

ومهما يكن من الأسباب الموضوعية والشخصية لهذه الفروق ، فانا قد ظفرنا من الرجلين بالأديب العالم ، وبالعالم .. الأديب . والأستاذ العقاد — فى فصوله المنشورة — يمكن أن يكون شخصية تتوسط هذين . فلا شك أن أفكاره خصبة دسمة ، ولكنها مع ذلك تتراءى لك فى أسلوب قوى تستشف منه اعتزازاً بالنفس ، وتمسكا بالرأى ، وإخلاصاً للفكرة ، جار على كثير من سلاسة الأسلوب وجماله الموسيقى .

ويعيش بيننا الآن طائفة من الكتاب يتمايزون فيما بينهم بصفات يستطيع القارىء المتوسط إدراكها كفتور العاطفة ، والفتنة بالموسيقى الصناعية ، والاعتماد

على الصور المتتابعة إلى غير ذلك مما مرجعه درجة الشعور الذى يسيطر على الكاتب وهو يستوحى القلم والضمير .

– ٣ –

وأما النوع الثانى وهو الأدب بالمعنى الخاص – أو ما يسمى الأدب الصافى Pure Literature فإن غايته الأولى بعث العاطفة وإثارتها ، وتعد الحقيقة فيه وسيلة ولكنها وسيلة لازمة لا قيمة للعاطفة إلا بها ، فإذا كان الأدب هنا كالسفينة ، كانت الحقيقة دفتها ، والعاطفة هى الشراع أو البخار ، ولبيان ذلك نعود إلى مثال المعرى المذكور آنفاً ونسأل أنفسنا عن السر الأول فى هذا السخط الذى بعثه أبو العلاء ، ولو فى بعض النفوس . هذا السر يبدو أولا فى ناحية الحقيقة أو البرهان الذى دعم به دعواه ، وهو ما ينالنا من فناء إلى غير عودة فى الحياة ، فهذه الحقيقة القائمة على الواقع المشاهد صورت للناس — أو لبعض الناس – حياتهم لعبة خاسرة ، فسخطوا ، ولولا هذا البرهان ، لبقيت العاطفة دعوى لا تعتمد على أساس فتذهب هباء لا يبقى .

وهنا تبدو لنا هذه المنزلة الخطيرة التى تنزلها الحقيقة فى هذا النوع من الأدب الخالص ، فليس حقاما قد يتوهمه الناس من أن الأدب صور خيالية تافهة أو عواطف مزعومة أو أفاكيه وعلات الفارغين . وإنما الحق أن هذا الأدب يقوم على أصدق القوانين العقلية ، فيعرضها عرضا قويا صادقا يجمع بين عمق التفكير وجمال التعبير .

وعند ما يعرض النقد الأدبى لهذا النوع ، يسأله عن الحقائق التى يحتويها ؛ ما قيمتها وما كميتها بجانب سؤاله عن العناصر الأخرى ، وأعظم الشعراء هم رجال المعارف الواسعة ، والتجارب الصحيحة ، والآراء السديدة ، والتفكير العميق ، ويقول كارليل : « إن الشاعر الذى يستطيع فقط أن يجلس على الكرسى وينشىء النظم ، لا يمكن مطلقا أن يقول ما يستحق القراءة » .

وتجد الآراء القوية والعقائد المسيطرة على الحياة أو العصور قد تناولها الشعر ، ولخصها فى تركيز الفن لا فى سفسطة الحواشى والشروح .

من هم زعماء الشعر العربى ؟ ومتى وجدوا ؟ وماذا نفيد منهم ؟ هم شعراء المعانى الذين انتهت إليهم خلاصة الثقافة الإسلامية ، كأبى تمام ، وابن الرومى ، والمتنبى ، والمعرى ، وهم الذين بعثوا بسبب شعرهم فن النقد الأدبى ، وهم الذين كثرت حولهم المؤلفات ، وقامت المدارس ، وغذوا الأدب العربى بثروة لاتبلى ، وجد هؤلاء فى العصور التى نشطت فيها حركة التأليف والترجمة ، فدرسوا وتثقفوا حتى برىء شعرهم من سفساف القول ، وبدت فيه نواح موضوعية شتى ، وامتازت شخصياتهم الفنية بقدر ماتيسر لهم من الثقافة والعرفان ، ولاشك أنا نفيد منهم فوق الأساليب ، هذه المعانى المخترعة ، والحقائق الأدبية ، وحسن تصوير الفترات التاريخية التى عاشوا فيها . ألم تتركز أنواع الحياة فى القرنين الرابع والخامس فى شعر المتنبى وأبى العلاء ؟ ثم لاحظ الفرق الواضح بين النثر العربى بداءة العصر الحديث وبينه الآن ، تجد أننا نعيش فى خير عصور النثر الأدبى ، وذلك لهذه الثروة الفكرية التى يذخر بها هذا الفن العظيم فلم تذهب بجماله وزادته قوة وسلطانا على نواحى حياتنا الحاضرة .

وهنا نصل إلى نقطة أخرى تفصل بين هذين النوعين من الأدب ، وهى جدة الحقائق . هل يجب أن تكون الأفكار الأدبية جديدة غير معروفة للقراء ؟ أما النوع السابق — كالنقد والتاريخ — فمن الضرورى اشتماله على معارف جديدة نفيدها منه مادام يرمى إلى التعليم والتثقيف ، لأن الناس لا يميلون إلى قراءة كتاب أو مقال يخبرنا عن شىء نعرفه من قبل جيد العرفان ، ولكن النوع الثانى لا يلتزم هذا القانون إذ كانت مهمته الأولى التأثير ، والتصوير ، ويحسن أن نفسر هذا الكلام بعض الشىء .

لو حاول الشاعر أن يحشد فى نظمه حقائق الحياة أو العلوم ، ويجعله جدلا فلسفيا — كما فعل المعرى فى اللزوميات — استحال فنه علما وصار كلامه أشبه بالمنظومات العلمية ، ويكون الشاعر هنا قد ترك مهمته التعبيرية إلى مهمة العالم التقريرية . ليست وظيفة الشاعر الجمع والتقرير ، بل الاختصار والتصوير ، فتجده كثيراً ما يتناول الأشياء المنظورة أو الأفكار المشهورة ويحاول تفسيرها أو

تعليلها تعليلا فنياً ، وفي ذلك تظهر براعة الشاعر وجدة معانيه. ولنذكر مثالا لذلك قول المتنبي فى شعب بوان :

غدونا تنفض الأغصان فيها على أعرافها مثـــل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عنى وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البـنان

فعنصر الحقيقة فى هذه الأبيات هو أن الندى يسقط على أعراف الخيل حين سارت فى الشعب صباحا ، وقد حجبت الغصون عنى حر الشمس ووصل إلى من الضوء مايكفيني نافذاً من بين الأغصان . وإذا حاولنا أن نجد له جدة أو قيمة عجزنا ، فلم يعد هذه الأخبار العادية التى لاتستوقف الفكر ، ولا تزيده ثقافة ، ومع ذلك فالشعر رائع جميل ... لماذا ؟ لأن الشاعر هنا يعرض الوصف الحسى لامجال فيه للفلسفة والأفكار العلميــة ، فاعتمد فى التجديد على الناحية التصويرية كما ذكرنا فى الـكلام على الخيال ، وأخذ هذه الحقائق التافهة وكساها بتصوره وتصويره فنوناً خيالية بديعة كانت أحسن العوض من ثراء الحقائق والآراء . وليس ذلك سهلا على الشاعر . فانظر إليه يعرض علينا الأغصان إنسانا ينثر الجمان على أعراف الخيل ، ويوصل إلى السائر ماينفعه ويحجب عنه مايؤذيه وهذه الشمس حين أشرقت نثرت عليه دنانير لاتستقر فى اليد ، حتى قال عضد الدولة حين سمع ذلك : والله لألقين فيها دنانير لاتفر ... وقد فعل .

وهذا بعينه هو مايقال فى هذه الأبيات التى أتعبت ابن قتيبة ، والعسكرى والجرجانى وغيرهم :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هوماسح

الأبيات — فلن تظفر منها بحقيقة فلسفيه أو علمية ، ولـكن ناحية التصوير بالغة فى الحسن درجة ممتازة كما بينا ذلك فى موضع سابق من هذه الصحيفة .

ويقول ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه شيء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يجعلا نصب العين، فيكونا متكئا واستراحة

وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس ، وحرك الطباع ، فهذا هو باب الشعر الذى وضع له وبنى عليه لاماسواه ،

ولكن الأدب العظيم هو الذى يجمع بين هذه الجدة فى التصوير وبين الجدة فى التفكير ، فيعرض علينا الفكرة القيمة ، والصورة الحسنة ،ليكون نافعاً ومؤثراً ، وهذا هو مافعله المتنبى حين قال :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذى شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم
ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

هنا تجد قوانين خلقية ، واجتماعية ، ونفسية تجعل العنصر العقلى غاية الثراء والافادة . وتجد صنوفا من التصور جعلت التصوير الخيالى أقوى ، وأجمل ماينتظر الفنى الأديب . فمن الجهل مايكون هو الحلم إذا دعا الصلاح الى المظالم ، ومن اللازم الحتم أن تركب شر المراكب حين لابد منها للحياة ، فالناس لئام لايحترمون إلا القوة ولا يرحمون ضعيفاً ، ومهما يكن من المبالغة أو التعميم فى هذه الآراء ، فهى شىء له قيمته يصور لنا هذه الشخصية المجربة الثائرة .

ولا أظننى محتاجاً إلى بيان هذه العناصر الخيالية التصويرية فقد مضى لها أمثلة كثيرة ،وحسبك أن تلاحظ أن عناصرها الدموية ، والحربية ،أليق العناصر بتلك الأفكار الثائرة الناقمة أولا، ثم هذا الجمال والتناسب فى طرق تأليفها استعارة وكناية ، حتى كان بعد التصور كفاء لقيمة الأفكار .

— ٤ —

على أن آراء المتنبى هذه تسلمنا إلى نقطة أخرى فى هذا البحث : أيجب أن تكون هذه الأفكار صحيحة لا يتطرق إليها خطأ ؟ ألسنا نستطيع الحصول على أدب جميل قيم مع اشتماله على أفكار خاطئة أو آراء سخيفة ؟ لا شك أن عرض هذه المسألة قد يسرع فيثير فى النفوس القطع أو الميل إلى الاجابة عن السؤالين بكلمة . نعم ، ولكن المسالة مع ذلك موضع جدال عريض بين النقاد

كل يتأثر بمزاجه الدينى ، أو العلمى ، أو الفنى ، ولست أقصد بالخطأ الكذب أو بعد الخيال والمبالغة مما عنى به ابن رشيق وأضرابه ، وإن كان لذلك أثر ما فيما نحن بصدده . إنما أقصد الأديب الذى يعرض الحقيقة فيعكسها أو يخطىء فى فهمها العلمى أو الفلسفى . وأقصد الراوى الذى يقيم فكرة روايته أو خطتها على نظريات خاطئة من ناحية التاريخ أو الاجتماع . قال أبو تمام :

ألذ من الماء الزلال على الظما وأطرف من مر الشمال ببغداد

وقد لحظ الجرجانى فساد الفكرة هنا فأخذ على أبى تمام أنه جعل الشمال طرفة ببغداد وهى أكثر الرياح بها هبوبا . وقوله :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد

ذهب الجرجانى فى تفسير هذا البيت مذهبا جعله فاسدا ، لأن الشاعر جعل البلاد إنما تضيق بأهلها لضيق الأرض وأنها لو اتسعت اتساع صدر الممدوح لم تضق البلاد ، ونحن نعلم أن البلاد لم تخطط فى الأصل على قدر سعة الأرض وضيقها . وأن الأرض تتسع لبلاد كثيرة . وإنما تضيق البلاد بأهلها لتزاحمهم فيها مع سعة الأرض . وقوله :

سبعون شهراً كلها فى كله لى عايق عن منزلى وبلادى

فجعل للكل كلا ، كما جعل للدهر دهرا فى قوله : —

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهراً أى عبأيه أثقل

وهنا أخطاء مذكورة تتصل بالتصوير لا بالتفكير كقوله :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ، ماماريت فى أنه برد

والبرد لا يوصف بالرقة وإنما يوصف بالصفاقة والدقة . ومثل ذلك النقد مشهور فى هذه الصورة : لا تسقنى ماء الملام . ولكن خطأ التصوير ليس مكانه هنا فلنتركه إلى مسألتنا .

هذه الأبيات التى ذكرت فاسدة المعنى كما يقول الأقدمون ، ويعنون بذلك فساد الفكرة أو الحقيقة . ومع هذا ففيها روعة ، وجمال ، وتأثير ، أى أنها أدب قيم على الرغم من هذا الخطإ ، ولذلك يرى كورثوب Courthope ، أن

قيمة الشعر لا تتوقف على صوابه الفلسفى لكن على ملاءمته لأغراض الفن. ومعنى هذا أن الصواب فى الأدب من حيث الأفكار — شيء ثانوى ، وأن القيمة الجدية فيه تتحقق من ناحية التعبير والتصوير ، وذلك يكون بمثل حسن التعليل ، وجمال التشبيه ، ودقة الكتابة ، وسلامة العبارة ، حتى لقد سئل بعض أهل الأدب : من أشعر الناس ؟ فقال : من أكرهك شعره على هجو ذويك ومدح أعاديك . يريد الذى تستحسنه فتحفظ منه ما فيه عليك وصمة وخلاف للشهوة ، وهذا قول أبى الطيب أولا : —

وأسمع من ألفاظه اللغة التى يلذ بها سمعى ، ولو ضمنت شتمى

ومثل هذا قيل فى صلة الشعر بالدين حين يفصل النقاد بين عقيدة الشاعر ودرجته الفنية فى التعبير الأدبى حتى قال الجرجانى : « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاب من أصحابه ، بكما خرسا ، وبكاء مفحمين ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر » — فأنصار قبول الخطإ الفكرى فى الأدب يتسامحون فى التضحية بالصواب ، معتمدين على أن الأدب ليس علماً . ولا فلسفة مما يطالب بالصدق فى الحقائق ، ولكنه فن تبدو ميزاته ، وتنحصر مهمته فى العناصر الأخرى كصدق العاطفة ، وروعة الخيال ، وموسيقا الأسلوب ، وقد مرت أمثلة لذلك .

غير أنه لا يفوتنا هنا أن نعترف بأن هذا الأدب الذى — على جماله — يعوزه الصواب ، لا يتساوى فى قيمته الفنية مع هذه النصوص الأخرى التى فازت بصحة الفكرة وجودة الأداء ، وذلك لأن الأدب كما يقولون ليس إلا تصويراً للحقائق بوساطة الخيال ، فاذا ما عرض للحقائق مخطئاً أثر ذلك فى هذا التصوير وهون من حسنه وقيمته . أما إذا وجد الخيال سنداً من قوة الحقيقة ، وصدق التفكير فهناك الشعر الجميل الخالد .

ويرحم الله أبا العلاء فقد قال :

كل بيت للهدم ، ما تبتنى الور قاء والسـيد الرفيع العماد
والفتى ظاعن ويكفيه ظل السـ در ضرب الأطناب والأوتاد
بان أمر الاله ، واختلف النا س ، فداع إلى ضلال وهاد

— ٥ —

وهنا ألتقى بنواح شتى عميقة معقدة: تتم الكلام فى هذا العنصر الأدبى الخطير وتتصل أشد ما تتصل بفنون لما تنضج فى الأدب العربى ، كالقصة والرواية التمثيلية ، وتتناول شرح بعض المذاهب الفنية العامة والأدبية الخاصة ، كالواقعية Realism والمثالية Jdealism ، والكلام فيها يمل ، ويطول ، وتعوزه فصول خاصه مطولة قد لا تحتملها الصحيفة ، ولكنى أتركها على أن أعود إليها حين تضطرنى الدواعى والمناسبات .

وأختم هذا البحث بنقطة يوضحها السؤال الآتى : — ما الصلة ، إذا ، بين الأدب والحقيقة ؟ وهل يحرص الأديب الخاص على تناول جميع النقط والأفكار التى تعرض له واصفاً ، أو غزلا ، أو راثياً ، أو راوياً ، أو خطيباً ؟ أبسط ما نعرفه عن هذه الصلة أن الحقيقة عنصر من عناصر الأدب تدخل فى تكوينه لاغنى له عنها ، بل لاوجود له ولا خلود بدونها . وقد استوفينا شرح ذلك فى الفصول السابقة ، والآن نلفت النظر إلى شىء آخر هو أن الاستقصاء وتناول الجزئيات التفصيلية ليس من طبيعة الأدب ، بل من وظيفة العلم الذى يعنى بكل شىء حتى يستطيع التقسيم ، والتبويب ، والموازنة ، وإصدار الأحكام الحاسمة .

فهذه الصلة تقوم على اختيار الأدب ببعض الحقائق ، أو المناظر ، أو الحوادث الهامة التى يجد فيها ما يؤثر به فى القراء والسامعين ، وسبيله إلى ذلك أن يقع الأديب على هذه الجوانب التى أثارته ، أو راعته — لأنه أدرك فيها جمالا مخبوءا أو سراً عميقاً — فيعرضها فى أسلوبه الصادق ، وقد مثلنا لذلك برثاء البحترى ووصف ابن خفاجة . وهذا شوقى فى قصيدة أبى الهول ، راعه منه شباب دائم ، وعمر مديد ، وسفر فى خلال الحقب ، وسخرية بالملوك والدول ،

إلى غير ذلك من أسباب العظة والاعجاب ، فهل أحصى شوقى سنيه وأيامه ، ونواحيه وأحجاره ، كلا فليس عالما مدققا ، ولكن فنياً مفسراً . وهل يعذر النقاد المحدثون حين يأخذون على معلقه طرفة استقصاء ، ودقة ، فى وصف الناقة بما ليس من طبيعة الشعر ؟ وهل تبيح لهم هذه الظاهرة العلمية أن يرفضوا أو يشكوا فى صحته ، وأن يفرضوا أنه من صنعة العلماء ؟

ومن بدائه الحياه وعجائبها ، وعظمة الفنون وتنوعها ، أنك لا تجد اثنين من الأدباء يتفقان فى كل ما يختاران من نقط التأثير لاختلاف الأمزجة ، والآراء والشخصيات عامة ، فتجد من آثار الشعراء ، والكتاب . والروائيين ، صورا شتى للشيء الواحد . وكلها — على اختلافها — جميل . مؤثر ، صحيح لا تنكره قواعد الفنون والآداب ، ومن هذه الناحية يخضع الأدب لسلطان الشخصيات ، الذى يرفضه العلم ، ويعده خطأ وجناية على حقائقه الموضوعية الخالصه ، ولا أجدنى محتاجا إلى تكرار ما سبق من الأمثلة التى توضح هذه الظاهرة ، فإن فعلت أثقلت حين يحتاج القراء إلى الراحة من هذا العناء ؟

أحمد الشايب

مقابس من معجم الأدباء لياقوت

على بن الحسن بن عنتر بن ثابت

الأستاذ عبد الخالق عمر

المدرس بدار العلوم

المعروف بشميم الحلى ، أبو الحسن النحوى اللغوى الشاعر ، مات فى ربيع الآخر سنة إحدى وستمائة ، أخبرنى به العماد بن الحدوس العدل ، وبمنزله مات بالموصل عن سن عالية . وهو من أصل الحلة المزيدية . قدم بغداد وبها تأدب ، ثم توجه تلقاء الموصل والشام وديار بكر ، وأظنه قرأ على أبى نزار ملك النحاة (وسنأتى على ذكره فى المجلة فى العدد المقبل لأنه من وادى شميم فى صلفه)

قال مؤلف الكتاب : وكنت قد وردت إلى آمد فى شهور سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، فرأيت أهلها مطبقين على وصف هذا الشيخ ، فقصدت إلى مسجد الخضر ودخلت عليه فوجدته شيخاً كبيراً قضيف [1] الجسم فى حجرة من المسجد ، وبين يديه جامدان مملوء كتباً من تصانيفه فحسب ، فسلمت عليه وجلست بين يديه . فأقبل على وقال : من أين أنت ؟ قلت من بغداد . فهمس بى وأخذ يسائلنى عنها وأخبره ، ثم قلت له : إنما جئت لأقتبس من علوم المولى شيئاً ، فقال لى : وأى علم تحب ؟ قلت له : أحب علوم الأدب . فقال : إن تصانيفي فى الأدب كثيرة ، وذلك أن الأوائل جمعوا أقوال غيرهم وأشعارهم وبوبوها ، وأما أنا فكل ماعندى من نتاج أفكارى ، وكنت كلما رأيت الناس مجمعين على استحسان كتاب فى نوع من الآداب استعملت فكرى وأنشات من جنسه ما أدحض به المتقدم . فمن ذلك أن أبا تمام جمع أشعار العرب فى

(١) قضف : نحف فهو قضيف .

حماسته ، وأما أنا فعملت حماسة من أشعارى وبنات أفكارى ، « ثم شنّع [1] أبا تمام وشتمه » ، « ثم رأيت الناس مجمعين على تفضيل أبى نواس فى وصف الخمر ، فعملت كتاب الخمريات من شعرى ، لو عاش أبو نواس لاستحيا أن يذكر شعر نفسه لو سمعها ، ورأيت الناس مجمعين على تفضيل خطب ابن نباتة فصنفت كتاب الخطب فليس للناس اليوم اشتغال إلا بخطبى ، وجعل يزرى على المتقدمين ويصف ما يجهل الأوائل ويخاطبهم بالكلاب ، فعجبت منه وقلت له : فأنشدنى شيئاً مما قلت ، فابتدأ وقرأ على خطبة كتاب الخمريات ، فعلق بخاطرى من الخطبة قوله : « ولما رأيت الحكمي قد أبدع ولم يدع لأحد من أتباعه مطمعاً ، وسلك فى إنشاء سر الخمرة ما سلك . آثرت أن أجعل لها نصيباً من عنايتى مع أننى علم الله لم ألمم بها بلثم ثغر مذ رضعت ثدى أم » أو كما قال . ثم أنشدنى من هذا الكتاب :

امزج بمسبوك اللجين ذهبا حكته دموع عينى
لما نعى ناعى الفراق بين من أهوى وبينى
كانت[2] ولم يقدر لشىء قبلها إيجاب كون
وأحالها التحريم [3] لما شبهت بدم الحسين
خفقت لنا شمسان من لألائها فى الخافقين
وبدت لنا فى كاسها من لونها فى حلتين
فعجب هداك الله من كون اتفاق الضرتين
فى ليله بدأ السرور بها يطالبنا بدين

(١) شنعه: قبحه وشتمه وفضحه .

(٢) أى حصلت فى الوجود ولم يقدر بشىء من الموجودات وجوب وجوده إلا هى لأنها موجودة منذ وجد الانسان وسايرته فى كل أدوار الحياة كأنها واجبة الوجود .

(٣) جعلها التحريم من المحال تناوله ، لأنها شبهت بدم الحسين وهو محرم سفكه ولعل المراد جعل شربها محالا

ومضى طليق الراح(١) من قد كان مغلول اليدين
ذى زينة الأحياء فى الد نيـــا وزينة كل زين

فاستحسنت ذلك ، فغضب وقال لى : ويلك ما عندك غير الاستحسان ؟ قلت له : فما أصنع يامولانا ؟ فقال لى : تصنع هكذا : ثم قام يرقص ويصفق إلى أن تعب ثم جلس وهو يقول : ما أصنع وقد ابتليت ببهائم لا يفرقون بين الدر والبعر ، والياقوت والحجر ، فاعتذرت إليه وسألته أن ينشدني شيئاً آخر ، فقال لى قد صنفت كتاباً فى التجنيس سميته أنيس الجليس فى التجنيس ، فى مدح صلاح الدين لما رأيت استحسان الناس لقول البستى ، فأنا أنشدك منه ، ثم أنشدنى لنفسه :

ليت من طول بالشـــام نواه وثوى(٢) به
جعل العود إلى الزو(٣) راء من بعض ثوابه(٤)
أترى يوطئنى الدهـــر ثرى مسبك ترابه
وأرى أى نور عينى موطئاً لى وترى به

ثم أنشدنى لنفسه فى وصف ساق :

قل لى فدتك النفس قل لى ماذا تريد إذاً بقتـــلى ؟
ألدرت خمراً فى كئوسـ ـك هذه أم سم صل(٥) ؟ ؟

وأنشدنى غير ذلك مما ضاع منى أصله ، ثم سألته عمن تقدم من العلماء فلم يحسن الثناء على احد منهم ، فلما ذكرت له المعرى نهرنى وقال لى : ويلك ! كم تسيء الأدب بين يدى ، من ذلك الكلب الأعمى حتى يذكر فى مجلسى ؟ فقلت : يامولانا ما أراك ترضى عن أحد ممن تقدم .

---

(١) جمع راحة ، يريد بطلاقة الراحة الكرم
(٢) ثوى : أقام
(٣) الزوراء : مدينة بغداد .
(٤) ثوابه : أى جزائه من المجازاة والاثابة
(٥) الصل : الحية .

فقال : كيف أرضى عنهم وليس لهم ما يرضيني ؟ قلت : فما فيهم قط أحد جاء بما يرضيك ؟ فقال : لا أعلمه إلا أن يكون المتنبى فى مديحه خاصة ، وابن نباتة فى خطبه ، وابن الحريرى فى مقاماته؛ فهؤلاء لم يقصروا . قلت له يا مولانا قد عجبت إذ لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريرى ، فقال لى : يا بنى اعلم أن ، الرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل ، عملت مقامات مرتين فلم ترضنى فغسلتها (١) وما أعلم أن الله خلقنى إلا لأظهر فضل ابن الحريرى ، ثم خلط فى الكلام وقال :

ليس فى الوجود إلا خالقان : فأحد فى السماء وأحد فى الأرض ، فالذى فى السماء هو الله ، والذى فى الأرض أنا ، ثم التفت إلى وقال : هذا كلام لا يحتمله العامة لكونهم لا يفهمونه ، أنا لا أقدر على خلق شيء إلا خلق الكلام فأنا أخلقه ، ثم ذكر اشتقاق هذه اللفظة ، فقلت له : أيا مولانا ؟ أنا رجل محدث وإن لم تكن فى المحدث جراءة مات بغصته ، وأحب أن أسأل مولانا عن شيء إن أذن ، فتبسم وقال : ما أراك تسأل إلا عن معضلة ، هات ما عندك . قلت : لم سميت بالشميم ؟ فشتمنى ثم ضحك وقال : اعلم إننى بقيت مدة من عمرى لا آكل فى تلك المدة إلا الطين فحسب قصداً لتنشيف الرطوبةوحدة الحنظ ، وكنت أبقى أياما لا يجيئى الغائط ، فاذا جاء كان شبه البندقة من الطين وكنت آخذه وأقول لمن انبسط إليه شمه فانه لا رائحة له ، فكثر ذلك حتى لقبت به ، أرضيت يابن الفاعلة .

هذا آخر ما جرى بينى وبينه ، ثم أنشدت له من حماسته :

لا تسرحن الطرف فى بقر المها فمصارع الآجال(٢) فى الآجال (٣)
كم نظرة أردت وما أخذت يد الـ ـمصمى (٤) لمن قتلت أداة قتال

---

(١) أى أزلتها .
(٢) الآجال الأولى جمع أجل : غاية الوقت المعين فى الموت .
(٣) الآجال الثانيه جمع أجل وهو بقر الوحش .
(٤) أصمى الصيد : رماه فاصابه مكانه

سنحت وما سمحت بتسليم ، وإقـ   لال التحية فعــلة المغتال
أضللت قلبى عندهن ورحت أنـ   شده بذات الضال(١) مثل ضلالى
ألوى(٢) بألوية(٣) العقيق على الطلو   ل(٤) مسائلا من لا يجيب سؤالى
تربت (٥) يدى فى مقصدى من (٦) لا يدى (٧)
قودى (٨) وأولى (٩) لى بهــا أولى لى
يا قاتل الله الدمى (١٠) كم من دم
أجرين حــلا كان غــير حلال

وأنشدنى تقى الدين أبو عبد الله محمد بن على بن أبى محمد المعروف بابن الحجاج من شرقى واسط قال : أنشدنى أبو الحسن على بن عنتر بن ثابت الحلوى المعروف بشميم وقد قلت : لا أراك تذم أحداً من أهل العصر فقال لى : ليس لأحد منهم عندى قيمة ، فانه لا يصلح للذم إلا من يصلح للمدح وأنشدنى :

قالوا نراك بكل فن عالمــا   فعلام حظك من دناك(١١) خسيسُ ؟
فاجبتهم لا تعجبــوا وتفهموا   كم ذاد نهزة(١٢) ليث خيسٍ خيسُ(١٣)

---

(١) اسم شجر : أى لقد ضللت وضل ضلالى مبالغة .
(٢) أعرج وأعطف
(٣) جمع اللوى وهو ما استدق من الرمل .
(٤) جمع طالل : مادرس من آثار الديار .
(٥) يقال تربت يداه لا أصاب خيراً والجلة دعائية . قصد من لا يدفع دية له
(٦) من مفعول قصدى أى فى قصدى من .
(٧) أى يدفع الدية .
(٨) أى قصاصى .
(٩) قيل فى قوله تعالى « أولى لك فأولى » أى قاربك الهلاك فهو يريد أحاط بى الهلاك
(١٠) الصورة من العاج والمراد بها الحسناوات من النساء .
(١١) الدنا : الدنيا .
(١٢) النهزة الفرصة .
(١٣) هو الشجر الملتف ، يريد أن لبث الخيس قد يذوده ويدفعه عن فرصته خيسه ، فعلمه الكثير وأدبه منعا عنه حظه من الدنيا

حدثنى ابن الحجاج تقى الدين قال : اجتمع جماعة من التجار الواسطيين بالموصل على زيارة شميم وتوافقوا على ألا يتكلموا بين يديه خوفاً من زال يكون منهم ، فلما حصلوا بين يديه قال أحدهم : أدام الله أيامك . فالتفت وقال « إيش ، هؤلاء ؟ فاني أرى عمائم كباراً ظننتها على آدميين . فسكتوا ، فلما قاموا قال له آخر منهم : ياسيدى ادع لنا بشمل الجميع ، فغضب وقال : « إيش ، هؤلاء وكيف ، خلقهم الله ؟ ثم حلف بخالقه وقال : لو قدرت على خلقة مثل هؤلاء أنفسهم ، من خلق مثلهم . قال المؤلف :

حدثنى محمد بن حامد بن محمد بن جبريل بن محمد بن منعة بن مالك الموصلى الفقيه فخر الدين بمرو فى سنة خمس عشرة وستمائة ، فى ربيع الأول منها قال : لما ورد شميم الحلى إلى الموصل بلغنى فضله فقصدته لأقتبس من علومه ، فدخلت عليه فجرى أمرى على ما هو معروف به من قلة الاحتفال بكل أحد ، وجرت خطوب ومذاكرات إلى إن قال : ومن العجائب استحسان الناس قول عمر ابن كلثوم :

مشعشعة كأن الحص (١) فيها ... إذا ما الماء خالطها ضرينـــا

« كذا قال تهكماً ، الا قال كما قلت :

« وسالت نطاف[2] الراح[3] فى الراح[4]

فاغتـــدى السماح إلى راحاتنا فسخينا » .

ثم أخرج رقعة من تحت مصلاه وقال لى مامعنى قولى « قلب شطر أعاديك خط من كفر أياديك » ، فقلت : أكتبها وأفسرها ؟ فقال : اكتب ، فكتبتها وقلت نعم : شطر « أعاديك » : « ديك » ، وقلبه : « كيد » ، أردت أن الكيد خط من كفر أياديك ، فقال : أحسنت ، وكان ذلك سبب إقباله على بعد ما تقدم

---

(١) الحص : هو الورس أو الزعفران .

(٢) النطفة : الماء الصافى قل أو كثر والجمع نطاف ونطف .

(٣) أى الخمر .

(٤) جمع راحة : وهى باطن الكف .

من إهماله إياى ، وأنشدنى أبو حامد المذكور قال : أنشدنا أبو الحسن على بن الحسن بن عنتر الحلى لنفسه :

أقبلى عثرة الشاكى أقبلى   فسولى فى سماع نثا(١) رسولى
وان لم تأذنى بفكاك أسرى   فدلينى على صبر جميـــل

حدثنى الآمدى الفقيه قال : بلغنى أنه لما قدم الحلى إلى الموصل انثال إليه الناس يزورونه ، وأراد نقيب الموصل ، وهو ذو الجلالة المشهورة بحيث لا يخفى أمره على أحد ، زيارته فقيل له ، إنه لا يعبأ باحد ولا يقوم من مجلسه لزائر أبداً ، فجاءه رجل وعرفه مايجب من احترام النقيب لحسبه ونسبه وعلو منزلته من الملوك ، فلم يرد جواباً . وجاءه النقيب ودخل وجرى على عادته من الاحتفال له ولم يقم عن مجلسه ، فجلس النقيب ساعة ثم انصرف مغضباً ، فعاتبه ذلك الرجل الذى كان أشار عليه بإكرامه ، فلم يرد عليه جواباً . فلما كان من الغد جاءه وفى يد الحلى كسرة خبز يابسة وهو يعض من جانبها ويأكل ، فلما دخل الرجل عليه قال له : بسم الله(٢) ، فقال له : وأى شىء هاهنا حتى آكل ؟ فقال له : يارقيع من يقنع من الدنيا بهذه الكسرة اليابسة لأى معنى يذل للناس مع غناه عنهم واحتياجهم إليه .

حدثنى الفقيه قال : بلغنى أن الحلى قدم إلى اسمرت فتسامع به أهلها فقصدوه من كل فج ، وكان فيهم رجل شاعر فانشده الرجل شعراً استعاده الحلى فقال لقائله : إنى أرفع هـذا الشعر عن طبقتك . فإن كنت فى دعواه صادقاً فقل فى معناه الآن شيئاً آخر ، ففكر ساعة فقال .

وما كل وقت فيه يسمح خاطرى   بنظم قريض يقتضى لفظه معنى
ولم يبح الشرع المبـين تيمما   بترب وبحر الأرض فى ساعة معنا

فقال له الحلى : ويحك اسجد ، ويلك اسجد ، فإن هذا موضع من مواضع سجدات الشعر وأنا أعرف الناس بها .

---

(١) النثا ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء .
(٢) يدعوه إلى الأكل .

ومما سمعته من فلق(١) فيه وهو من إنشاء خطبة له وهى :

الحمد لله فالق قمم(٢) حب الحصيد بحسام سح السحب(٣) ، صابغ خد الأرض بقانى(٤) رشيق يانع العشب ، نافخ روح الحياة فى صور تصاويرها بسائح القراح(٥) العذب ، يحيى ميت الأرض باماته كالح الجدب ، لابتسام ثغر نسيم انفاح الخصب ، محيل(٦) جسم طبيعة الماء المبارك فى أشكال الحب والعنب والزيتون والقضب ، جاعله للأنام والأنعام ، ذات الحمل والحلب، محلى(٧) جيد الأفلاك بقلائد درارى النجوم الشهب ، ومجلى(٨) جند الأملاك عن مباشرة التصرف والكسب ، وللقيام بالواجب واصل التسبيح والتقديس للرب . قابل التوبة من المذنب المنيب(٩) وغافر الذنب ، الواحد المنفرد بوحدانيته عن ملاءمة قسمة أعداد الحساب والضرب ، المستغنى بصمدانيته عن مسيس الحاجة إلى دواعى الأكل والشرب ، الشاهد على خلقه بما يفيضون فيه لا لاتصاف بعد ولا قرب ، المهيمن على سر اجتراح(١٠) كل جارحة وخاطر(١١) خاطر وتقلب(١٢)

---

(١) فلق (بالكسر وتفتح الفاء) أى: من شق فيه أى شافهنى به .
(٢) أى أعالى .
(٣) سح السحب : تهطالها .
(٤) أى كسا سطح الأرض بالأحمر الرشيق اليانع من العشب .
(٥) القراح : الصافى ، أى بث الحياة فى صورها ، والصور : البوق .
(٦) أى محول .
(٧) أى مزين من الحلية .
(٨) أى مبعد : أى أنه لا تصرف للملائكة فى الملكوت .
(٩) الراجع التائب .
(١٠) اجترح الاثم ارتكبه .
(١١) أى ما يخطر على النفس ، والخاطر : البال .
(١٢) أى تغير نزعاته .

قلب، أحمده على ما منح من موضح بيان بما ألب[١] من سويداء لب، وأشكره على ما جلا من مظلم ظلم جهل، وكشف من كثيف ركام كرب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادة سالمة من شوائب النفاق والخبث، مؤمنة قائلها يوم الفزع الأكبر من إيحاش الرهب والرعب، وأشهد أن محمداً عبده المجبوب بعقد حبا[٢]، خاتم أنبياء من جميع أصحاب الصحف والكتب. وصفية المنتخب لنصر الدين وإقامة دعوة الاسلام بالبيض القضب والجرد القب[٣] والأسد الغلب[٤]، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما استحت الغزالة بأفق شرق وحجبت بغارب غرب، صلاة يفنى تكرار عديدها صم الحصا الصلب، ويبيد أربد الترب، عباد الله. من اختلف عليه الآباد[٥] باد؛ ومن تمكنت يد المنون من عنقه نقاد؛ ومن تزود التقوى استفاد خير الزاد؛ ومن بدأ ببره وعاد للمعاد فاز بالاحماد[٦]؛ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا؛ وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا؛ ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد، «اللهم نول آمالنا مناها؛ وكفل أعمالنا تقاها؛ وخول[٧] أطاعنا رضاها، ولاتشرب قلوبنا هوى دنياها، فان المعاطب[٨] في حبها، وشين المعايب ضرر بها، فلا تجعل اللهم مهامنا فيها المنى، وآمناً بأمننا من كيد أمنا الدنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، أستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر

(١) أي جمع.

(٢) الحبا جمع حبوة. ما يعقد به الظهر مع الساقين في الجلسة والمراد بذلك العظمة.

(٣) البيض القضب: السيوف، والقب جمع قباء أو أقب، والجرد جمع جرداء. أو أجرد: الخيل الضامرة القصيرة الشعر.

(٤) الأسد الغلب: المراد بهم الشجعان أو الغلب صفة للأسد من غلب كفرح غلظت عنقه.

(٥) الآباد: الأزمان جمع أبد.

(٦) أي بالحمد والشكر جمع حمد.

(٧) خوله كذا: ملكه إياه.

(٨) أي المهالك.

المسلمين . ولو الدى ولمن علمنى(١) من لطائف شميم الهزلية أنه أنشد لنفسه شعرا وعدد حاضر من الناس فاستحسنوا ماقال فلم يعجبه ذلك وقال أكثر للحسن أن تفعلوا هكذا ؛ ونام على ظهره وصار يزحف حتى بلغ جدار المكان فرفع رجليه وظل يرفعهما حتى صارت رأسه أسفله كما يفعل اللاعبون .

كذلك مما حدثوا به عنه أنه سمع نائحات فى جنازة ميت فقال لمن حضره ليس مايقلن بشىء ، ثم صعد على مرتفع فى المكان وقال : قوموا وافعلوا مثلى وصار يلطم على وجهه وينوح والحاضرون يأتسون به ، ولله فى خلقه شئون .

عبد الخالق عمر

---

(١) لقد كنت نعيت على ان حسول ثقل كتابه إلى الصاحب لما فيه من تركيب غث وتكلف سقيم ، ولكن خطبة شديم الحلى جاءت ضغثا على إبالة وهذا الكتاب فى ترجمة ابن حسول

تحيـــة عيـــد الجلوس

للشاعر عمر الله فرج الجمل
المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

ما شئت من ملك وعز وشانْ السيف فى يمناك والصولجانْ
وأمـــة تصبو إلى مجدها تفتن فى ذكراه أى افتنان
رَاَمتك تقضى للعلا حقها فابلغ بها فيما تروم العنان
فى كل ميدان لهـا رَايةٌ خفاقة يهفو لهـا الخافقان
كلا كما فى عنفوان الصبا ومجد وادى النيل فى العنفوان
فابسط على الآفاق سلطانها واكتب لها النصر ونحر الرهان
ومد ظل الله فى أرضـــه بشرعة الحق ونهج القرُآنْ
تهيَّأ الملك وأســبابه لعاهل النيل وآن الأوان

يا حامى الإسلام أنت الذى عز بمـا أوتيته المشرقان
طلعت والملك عقيم فمـا هرون فى الشرق ولا «شارلمان»
والدهر لمـا أن ثنى عطفه ولج فى طغيانه واستهان
راح على ما كان من أمره يلقى المعاذير ويرجو الأمان
وهذه الأيام من رسله وافتك تلقى فى يديك العنان
فاقبل من الدهر معاذيره ورد للأيام نعمى الجنان

ترى إذا جزت سبيل الحمى للقصر فالحراس والدَّيدبان
وطفت بالإيوان يسبى النهى بما حوى من عَبقَرى حسان
ولاح رب التاج فى عرشه عليه من نَسج التقى حلتان
والكوكب الدرى فى أفقه يَشيعُ نوراً حول هذا المكان
وحف جبريل وأملاكه من حول رب العرش رأى العيان

يباركون التاج فى عيده بنفحة الخلد وريّا الجنان
فقف وكبر خاشعا ضارعا وارفع مع الاجلال آى التهان
وانثر أزاهير المنى حوله من سوسن الأخلاص والأقحوان
وَطرّب الحفل بأغرُودة من لحن داود ونسج ابن هان
وألهم الشعب أهازيجه يَشدُو بها فى نَشْوة المهرَجانْ
فنى ادّكار المجد تحلو المنى وفى مثار الفخر تسمو الأغان

يانفحة الشعر أثيبى فتي يستلهم القول ووحى البيان
شمائل الفاروق لا تنتهى عدا ولا يدرى مداها الجنان
أكلما صورت من خلة ندت عن التصوير والفجر بان
فما بلغت الأوج من أفقه أحده حتى تلا الأفق ثان
تتابعت آفاقه للعلا لا الشعر يدنيها ولا الشعريان
كأنه الكون وآلاؤه كواكب من دونها النيران

عيد الجلوس أنت رمز العلا حملت فى معناك شتى المعان
من فيض يمناك استقل الحمى واعتز بالدستور والبرلمان
وشعبك المختار فى أنعم بالهيل ما يلقى وبالهيلمان
تفتحت للمجد أبوابه فى البر والبحر وما يحملان
تهيأ الملك وأسبابه لعاهل النيل وآن الأوان

فاروق دُمْ للملك فى شوكة والدّين ،من عادومن كل شان
وكلُّ عيدٍ تِلوُهُ مِثلُهُ وكل بشرى إثرُها بُشرَيان

عمر الله فرج الجمل

عــلم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

— ٢ —

للأستاذ محمد خلف الله
المدرس بكليـة الآداب

طرق الدراسة النفسانية

أمام الباحث العلمي وجهتان يمكن أن تتجه إليهما جهوده : أولاهما النظر فى قضايا العلم الذى توفر على درسه ، والبحث فى معضلاته ونتائجه ، والثانيـة النظر فى طرق هذا العلم وخططه . ولـكل من هاتين الوجهتين اتصال وثيق بالأخرى ، فان المعضلة لا تتحدد فى شكل علمى إلا إذا وجدت طريقة لعلاجها ، ويتوقف سـير النتائج على مقدار الاتقان فى خطط الدراسة ، وكلما تقدمت الخطط والنتائج تفرعت منها معضلات جديدة .

ولاختلاف خطط الدراسة تختلف العلوم فى سيرها ، بل تختلف شُعَب العلم الواحد فى أهميتها ، فالعلم لا ينمو كشجرة واحدة وإنما يتألف من أجزاء لـكل منها حياة خاصة وزمان نضج خاص . وعلم النفس من أكثر العلوم خضوعا لهذه الظاهرة ، إلا أنه يمكنك أن تقول على وجه عام إن العلم فى تقدمه يسير من الوصف البسيط إلى تحديد العلاقات وتنظيمها والوصول إلى قواعد عامة ووضعها فى حـدود كمية . ولا بد فى دراسة أى علم من مادة يبنى عليها الدرس ، وطريقة تعالج بها هذه المادة ، وخطة أو خطط تنفذ بها تلك الطريقة .

فأما المـادة الغفل فى علم النفس فهى تصرف الأفراد وحياتهم العقلية ، وتلك يستقيها الباحث من مصادر عدة كالسجلات المحتوية على تواريخهم ،

والمنتجات التى يخلفونها من رسوم وخطب ومقالات وقصائد ، وكالتصرف الذى تدونه الملاحظة أو التجربة ، والأخبار التى يتطوع بها الشخص نتيجة لفحصه نفسه ، والذكريات التى يستعيدها عن سابق حياته ، وكالمقاييس التى تحاول ذرع أثر الوراثة والبيئة بأنواعها فى حياة الأفراد .

وأما طرق الدراسة النفسانية وخططها وهى موضوعنا اليوم . فسنبدأ منها بطريقة الفحص النفسى (أو التأمل الباطنى) التى كانت عماد هـذه الدراسات حتى أواخر القرن الماضى ، والتى لا تزال موضع ثقة كثير من العلماء الحاضرين . إنه ليس لأحد من الناس اتصال مباشر إلا بعقله الخاص ، فكل منا يحس لذة أو ألماً ، ويفكر وينزع إلى العمل ، ويتذكر ويترقب ، ويتردد ويختار ، وإذا سلّط الواحد منا تفكيره على هذه التجارب الخاصة فى نفسه ، استطاع أن يكوّن فكرة عن مظاهر عقله وعما يجيش بنفسه من خطرات وشئون ، واستطاع من طريق المقارنة والقياس أن يعلم أن للآخرين تجارب مثل تجاربه ، وأن لهم عقولا مشابهة لعقله . وإذا لاحظنا ما يقترن بأحوالنا النفسية من تصرف جسمى خارجى ، كالحركات التى تقوم بها الأطراف والوجه والحلق والصدر ، وراقبنا مثل هذه المظاهر فى الآخرين ، وسمعناهم يتحدثون عن التجارب التى ترافقها ، أمكننا أن نصل إلى عدد من القواعد العامة نقرّر فيها مقدار التلازم أو الارتباط بين أنواع من التجارب وأنواع من التصرف والحركة الجسمية وأمكننا أن نحكم من غير ما تردد — بما نرى من التصرف — أن هذا الشخص محزون أو مغتبط أو خائف أو متردد أو حانق أو شفيق .

هذه الأنواع من الملاحظة ، ملاحظة الشخص تجاربه الخاصة ، وملاحظته الظروف أو المناسبات التى تحيط بها ، والتعابير الجسمية التى تقترن بها ، كل أولئك يحذقه كثير من الناس ، ويضمنونه أساليب كلامهم ، ويبنون عليه قضايا أو نظريات من شأن علم النفس أن يبحثها فى طريقة علمية ويعرضها على محك النقد والاختبار .

وهذه الملاحظة من جانب الانسان لشئون نفسه والتأمل فيها ، والتعبير

عنها ، كل أولئك إذا جرى على نسق مرتب ونظام مرسوم ، كوّن طريقة من أعظم طرق الدراسات النفسانية وأجدرها بالقبول والاعتماد . ولقد اهتدى العلماء قديما إلى هذه الطريقة ، واعتبرها كثير منهم السبيل الوحيدة المجدية التى يمكن بها الحصول على المعارف الخاصة بالعقل . وقد اهتم العلماء فى الخمسين سنة الأخيرة بتنظيم هذه الطريقة وصبغها بالصبغة التجريبية ، وذلك بألا ينتظر الفرد حصول التجارب ثم يحاول ملاحظتها ووصفها بل يعمد إلى خلق الظروف المصطنعة التى تجر إلى بعض هذه التجارب ثم يراقب سيرها بكل دقة ، ويهتم بوصف كل صغيرة وكبيرة من نواحيها . وأصبح يستعان الآن على تنظيم هذه الطريقة بالمعمل والأجهزة الدقيقة ومعونة الخبراء من النفسانيين .

ولعله لا يغيب عنك أن للفحص النفسى نواحى نقص تحدُّ من قيمته والاعتماد عليه. فان محاولة هذا الفحص قد تغيرُ من طبيعة التجارب التى نريد دراستها وتفوّت علينا الغرض المراد منها ، وتوزع الذات بين جزء ملاحِظ وآخر ملاحظ ، ألا ترى أن الشخص المغضَب الذى يكاد يتميز من الغيظ والحنق ، لو انصرف الى التأمل الباطنى والتفكير فى مراحل غضبه وثوران نفسه لخفّت فورة ذلك الغضب ولتغيرت التجربة الملابسة له تغيراً كبيراً ! ثم ألا ترى أن محاولة المرء النظر فى بعض تجاربه المؤثرة ووصفها قد يمنع منه انصرافه إلى مشاهدة آثارها الظاهرة ! وهبنا أردنا التغلب على بعض هذه الصعوبات فانتظرنا حتى الفراغ من التجربة وزوال تأثيرها ثم حاولنا تذكر ما حصل خطوة بعد أخرى ، ألا ترى أن ذلك يعرضنا لخطأ نسيان بعض الخطوات ، أو خلط الترتيب بين بعضها والآخر ! على أن هناك صعوبة أخرى لا تقل عن سابقاتها شأناً ذلك أن التعبير اللغوى الذى يحاول فيه كل منا أن يصف تجاربه للآخر هو فى العادة ناقص وغير دقيق : فاللغة — على اتساع أساليبها وغنى ثروتها ومحاولة الأدباء وعلماء النفس أن يجعلوها أداة كافية فى التعبير — لا تزال يعوزها الضبط والدقة فى وصف المعانى النفسية والظواهر العقلية ، وإذا كانت اللغة قد أثبتت غناها وكفايتها فى وصف الأشياء والحوادث المادية — لأن هذه الأشياء والحوادث

فى متناول الجميع ، ويستطيع كل أن يتعرفها ويعبر عنها فى قالب يرتضيه الآخرون ويوافقون عليه — فهى لا تزال بعد قاصرة أمام المعانى النفسية . والذنب فى ذلك ليس ذنب اللغة ، وإنما هو خفاء هذه المعانى وكون معرفة المرء بهذه التجارب ليس دائماً مباشرة .

أما الفحص النفسى التجريبى فأمامه وراء هذه الصعوبات عقبة أخرى ، ذلك أن من بعض التجارب الحيوية المهمة كالحزن والفرح والنزاع النفسى الأخلاقى ما لا يستطاع إحداثه بوسائل صناعية إلا فى درجة محدودة ، لا تكفى فى تحديد طبيعته تحديداً علمياً فليس التكحل فى العينين كالكحل ، وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة .

هذه النواحى من النقص فى الفحص النفسى أغرتْ بنقده جماعة السلوكيين الحديثين — وهم الذين يحتمون أن تكون الطريقة العلمية «موضوعية» لا يشوبُ رونقها الرأى الشخصى ولا التأويل الذاتى ، وأن تكون بحيث يتسنى للباحثين الاتفاق على خططها ونتائجها — فأخرجوا الفحص النفسى من حظيرة دراساتهم وقالوا إن علم النفس فى معناه الصحيح ليس إلا دراسة التصرف والسلوك ، وإن مِنْ بين من يتناولهم هذا العلم الأطفال والشواذ ومرضى العقول والحيوان ، وأنى لطائفة من هؤلاء أن تقوم بفحص نفسى يعتمد عليه فى الدراسات العلمية الصحيحة !

ومهما يوجه إلى هذه الطريقة من نقد فقد أدت ولا تزال تؤدى أكبر الخدمات للدراسات النفسانية ، وقد ظهر أثرها جلياً فى تلك المرحلة الوصفية التبويبية من تاريخ علم النفس ، وهى كما تعلم مرحلة أساسية فى ترقى أى علم من العلوم ، والجهرة على أن طبيعة التجارب النفسية والعقلية ، وكون الأحوال الداخلية لكل شخص سراً خاصاً به لا ينكشف منه لغيره إلا أقله تجعل من الضرورى بقاء هذه الطريقة ركناً من أركان الدراسات النفسانية .

هذا وكل من المصلح والمربى والاديب يستطيع أن ينتفع بهذه الطريقة انتفاعا علمياً ويجعلها بعض أسلحته فى الوصول إلى بعض نتائج نظرية وعملية

ذات شأن فانك تستطيع مثلا — وقد قمت أنا بشيء من هذا فى بحث صغير — أن تطلب إلى مجموعة من النـاس أن يستذكروا مامرّ بهم من صراع أخلاقى ويفحصوا أنفسهم ليتبينوا العوامل التى تتنازعهم أثناء ذلك الصراع من رغبة جامحة أوشهوة عاصفة ، ومن وازع دينى أو اجتماعى ، ومن حرص على شرف أو فضيلة أو مصلحة عامة أو نفع شخص ، حتى إذا وافوك بنتائج فحصهم أعملت فيه يد التحليل والإحصاء ، وربما خرجت منه بفكرة إصلاحية ، أو نظرية علمية موفقة . وإنك لتستطيع أن تطلب إلى عدد من الشعراء مثلا أن يراقبوا أنفسهم ساعة تحفزهم دواعى الشعر ويهبط عليهم وحيه ، ثم يصفوا لك مايتقلبون فيه من شعور وإحساس ، كيف يبدءون ، وكيف تتنزل عليهم المعانى ، وهل تجيش الخواطر بأنفسهم غامضة ثم يبحثون لها عن ثياب من الألفاظ والقوافى أم تبدو لهم كاملة فى حليها وزينتها ، آخذة ألفاظها برقاب معانيها ، وأبياتها بحجز قوافيها ، وأين يفضل كل منهم أن يقرض الشعر : أفى حديقة ، أم مجلس أنس ، أم ساعة خلوة ، أم ساحة معبد ؛ وفى الصباح الباكر ، أم فى المساء الصامت ، وتحت ظلال النخيل أم على شاطىء النيل ، فإذا اجتمع لديك عدد صالح من أمثال هذه الملاحظات الباطنية أمكنك أن تتفهم طبيعة التجارب الشعرية ، وما يكون فيها بين الأفراد من فوارق أو من صفات مشتركة . واستطعت أن تدلى فيها برأى تجريبى علمى يتناوله سواك بالتطبيق والنقد .

وقريب من هذا أن تراقب أنت نفسك أثناء قراءة الشعر أو سماعه لترى طريقة تأثيره فيك ، وما تبعثه الأبيات فى ذهنك من معان وأفكار وعواطف وانفعالات وصور وأخيلة ، ولتتبين هل انصرفت أكثر إلى جمال الجرس الموسيقى ؟ أم إلى دقة المعنى أم إليهما معا ، وهل كنت ترى نفسك فى القطعه عند سماعها ، أم هاجت فيك شوقا دفينا ، أم ذكرتك أيام لهو وشباب ، وهذه تجربة يمكن أن تجرى على عدد كبير من الناس ويمكن أن تكون نتائجها عونا لمدرس الأدب أو باحثه على تبين عناصر التأثير فى الادب من جهة ، وعلى نواحى التفكير والأهواء التى تثيرها أنواع خاصة من الادب فى نفوس طلابه

من جهة أخرى ، ثم على كشف المراحل المتعاقبة من الشعور الذى يمر به قارىء الأدب أو سامعه من جهة ثالثة .

وبعد فهل لك فى شىء من التطبيق لبعض هذه النواحى ؟ اقرأ هذه الأبيات الآتية (لابن خفاجة الأندلسى) فى تمهل وأناة وبصوت تسمعه ، ثم راقب مايجيش بنفسك من الصور والمعانى والذكريات عند قراءتها ثم دون ملاحظاتك بعد الانتهاء ، واذكر ما قد يعترضك من صعوبات فى الفحص النفسى ، ثم قارن ملاحظاتك ببعض ما سأورده عليك من ملاحظات فريق من طلبة السنة الأولى بالجامعة المصرية ، وفريق من طلاب إجازة التدريس فى كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية . وهاك الأبيات :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ... ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصَخْتُ اليه وهو أخرس صامت ... فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال : إلى كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أوَّاهٍ تبتل تائب
وكم مر بى من مدلج ومؤوِّب ... وقال بظلى من مطىٍّ وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفى ... وزاحم من خضر البحار غواربى
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكى غير رجفة أضلع ... ولا نوح ورقى غير صرخة نادب
وما غيّض السلوان دمعى وإنما ... نزفت دموعى فى فراق الصواحب

ثم هاك بعض الملاحظات — وأترك لك أن تميز أنت الجامعى منها من الأزهرى

(الطالب ١) « مما مر بخلدى تصوير الدنيا فى سرعة زوالها بأبسط الأشياء حيث نزح عن الاقامة بهـا كل سفر ضربوا أكباد الابل قطعا لأجوازها ومفاوزها . ثم خالجتنى فكرة خلو الجبل وكيف أنه بقى مقفرا وستئول جميع الأماكن إلى ما آل إليه ؛ ثم اعترانى

وجيب فى الفؤاد لم أتحقق مأتاه ولكنى أظنه جاء من رهبة الموت وجلال سطوته . ثم أخذتنى نشوة من الطرب حينما أحسن الشاعر التعليل بجعـــله أصوات البلابل نوحاً على فراق الأحبة ، واهتزاز الأيك رجفة وأسى فى حنايا الضلوع » .

(الطالب ٢) « أثار حديث ابن خفاجه فى نفسى ذكريات الألم لفراق الصحبة والاخوان ، كما أنه رسم فى ذاكرتى صورة الرجل الوقور تمر به أحداث الأيام فلا يتزعزع . . . . . . والظريف فى هذا أننى فى بعض أبياته رأيتنى واقفاً أمام رجل من الذين يمشون فى الأسواق وممن ينتسبون إلى بعض مشايخ الطرق يرتدى قلنسوة سوداء لفت عليها عمامة حمراء » .

(الطالب ٦) « شعرت حينما سمعت وصف الشاعر الجبل بحالة نفسية محزنة ... ثم أثار الوصف فى نفسى ذكريات الطبيعة الجميلة ... وقد كان ذهنى موزعاً بين فهم الألفاظ ومراقبة الحالة النفسية . أما تسجيل ما قام بذهنى مع الحالة النفسية التى كانت عندى فغير محدود تماماً » .

(الطالب ١٥) « اعترتنى مسحة من الحزن وأعوزنى أن أعبر عن حقيقة ما خالج نفسى ، وشعرت كأن هذا الجبل الصامت إنسان فخور بنفسه يأوى إليه الضعيف والمسكين . وقد ذكرنى بأمم أخنى عليها الدهر بكلكله » .

(الطالب ١٦) « خطر بنفسى اختلاف مشارب الناس ، والرهبنة والرهبان ، وذكرت البيتين رب ركب قد أناخوا حولنا

ثم ذكرت قول المعرى :

نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ماترى:
نهار يمر ، وليل يكر ، ونجم يغور ، ونجم يرى

وقد كنت محساً جمال الأسلوب والمعنى ... ولا أدرى ماذا كان يجول بنفسى لو لم أكلف مراقبتها » .

(الطالب ١٧) « تخيلت إنى فى صحراء واسعة الأرجاء يجثم فى جهة منها جبل ضخم يطاول السحب . أعقب هذا الخيال سرور بدقة الوصف وحسن التعبير ... وقد شعرت بأن ما نسيته أكثر مما كتبته » .

(الطالب ٢٠) « تذكرت أول ما تذكرت أياماً من صباى ، ولكنى لم أعرف شيئاً عن تحديدها ، وقد ذكرنى كلامه عن الريح بمطالعاتى عن الريح فى جزيرة العرب وماكان من شأنها مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته ... ... » .

(الطالب ٢٢) « لقد سمعت هـــذه الأبيات بتلهف لمعرفة ما يجيش بخاطرى وما يحيط بشعورى من الذكريات ، فاذا أنا أشعر بالوحشة إلى هذه البلاد وآسى على ماأصاب أهلها من نوائب الدهر . وتصورت الجبل ينعى أهل ذلك العصر الذهبي العظيم . ولقد ذكرت مواقف انقبض صدرى فيها وآلمنى منظرها فقد رأيت أحد أعزائى وقد نكبه الدهر فى عزيز لديه ينتحب ويبكى بكاء مراً لحز فى نفسى ما رأيت ... »

(الطالب ٢٣) « الحقيقة أن إعجابى بجودة الالقاء شغلنى عن كثير من نقط القطعة فلم يطرأ على ذهنى إلا تمنى أن أكون شاعراً عظيما ... ولقد تذكرت الفرق بين حالة أسبانيا فى الماضى وما تعانيه الآن من أهوال الحروب ... ولقد وجدت صعوبة كبيرة فى الكتابة ، كيف أبدأ وأى شيء أكتب ، أعن اختلاف الناس بين عاشق وحزين ! ... ... »

(الطالب ٣٠) « أصغيت إلى الالقاء مستجمعاً أفكارى فما بدأ البيت الأول حتى حسبت أن الشاعر قد انتقى كل لفظ من ألفاظه ثم جمعها فى عقد ساحر مما دعانى إلى الانتباه فانتبهت فاحسست أن فى صدرى شيئاً يترامى كلما سمعت ابن خفاجة وهو يتخيل هذه المحادثة الخالدة بينه وبين الجبل الشامخ ... ... ثم أثرت أخيراً الشكاية فى

صدرى فاحسست رعدة من الحزن تسرى فى جوانبى ... وما انتهى الالقاء حتى شعرت أنى كنت فى دنيا من الروعة والحسن والجمال العبقرى النادر » .

(الطالب ٣١) « تصور لى فى مخيلتى منظر رجل معمم جالس فى ظلمات الليل يحدث رجلا مسافراً على ناقة تبدو عليه علامات الذعر والخوف ثم تذهب عنه علامات الخوف ويتبدل وجهه الشاحب إلى وجه تظهر عليه علامات الدهشة والعجب ... » .

(الطالب ٣٢) « هذه القطعة تذكرنى قيساً حين هام بليلى وذهب حيث لا يعرف سبيله وقد سدت فى وجهه الطرقات حين فوجىء بعدم رضا ليلى عنه ... » .

(الطالب ٤٠) « ابتدأ ابن خفاجة فأعطانا تصوراته للطبيعة وما يحيط بها من جبال شامخة وليل طويل . وقد تصورت الجبل كعملاق شاهق وقد التف برداء أسود هو الليل ، وتذكرت الوحشة التى يلقاها المسافر وحيداً لا أنيس له إلا صوت الطبيعة ومناظرها . وما القطعة التى سمعتها إلا شىء تألف من كلمات وألفاظ أخذت موسيقاها تتراقص فيما بينها فهاجتنى بعذوبتها وانسجامها . ولا أدرى إلى أى مدى قذفت بى هذه الالفاظ فقد انتقلت إثرها مما أنا فيه إلى طبيعة كلها سكون وحشة » .

(الطالب ٥٠) « تصوّر الطبيعة فوصفها وصفاً جميلا من ليل بهيم وسماء صافية ثم وصف الصحراء وما يكتنفها من مظاهر خلابة جميلة ، من هبوب الرياح والهواء المنعش ، ووصف حاله وهو وحيد تمر به قوافل المسافرين ثم تحسر على فراق الأحبة » .

هذه بعض نماذج من نتائج الفحص النفسى ولعلك بعد قراءتها تقر معى أن لهذه الطريقة العلمية جانبها الممتع اللطيف .

محمد خلف الله

السير محمد اقبـــال

رحمـــه الله

للأستاذ عبد الوهاب النجار

منذ أيام توارت شمس من شموس الهداية بالحجاب . وسكن قلب كان لا ينبض إلا باحياء الاسلام ولا يختلج إلا بمجد الاسلام ولا يعيش إلا بأمل إعلاء شأن الاسلام وإنعاش أهل الاسلام .

كان شاعر الهند وفيلسوف أهل الهند ومعقد رجاء أهل الهند عامة وأهل البنجاب خاصة، والقبلة التى يولى الشباب فى تلك الديار وجوههم شطرها وبهديه يعملون وعلى نهجه يسيرون .

لم تكن معرفتى بالسيد إقبال حديثة العهد ، فقد كنا فى المؤتمر الاسلامى بفلسطين أعضاء فى سنة ١٩٣٠ ، وجاء إلى مصر وألقى بجمعية الشبان المسلمين محاضرة كان لها الوقع الحسن عند السامعين ، ألقت ضوءاً لامعاً على أحوال المسلمين فى الهند ومقاصدهم .

وقد كان السير محمد إقبال أول من فكر مولانا صاحب الفضيلة الشيخ الأكبر فى الاستنارة برأيه فى مسألة المنبوذين وجاء رأيه إلى الشيخ ، ولتعدد وجوه الرأى على الأستاذ أرسل البعثة الأزهرية لدراسة المسألة عن كثب وتعرف وجه الرأى فيما يمكن عمله ، وقد اتصلت به البعثة فى لاهور وقضت بضع ليال فى الوجود معه ودراسة المسألة بعنايته وإرشاده .

وقد رجعت إلى مذكرتى اليومية التى كنت أكتبها عن أيام البعثة فى الهند فوجدت ما يأتى :

يوم السبت ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧

فى الصباح الباكر من يوم السبت ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧ وفى صبارة البرد

القارس وقف بنا القطار فى محطة صغيرة قريبة من لاهور، فاذا نحن بثلاثة فتيان أحدهم طبيب والآخران من الكلية الاسلامية بلاهور قد جاءوا إلينا وأسنانهم تقضقض من شدة البرد ، فـلموا ورددنا تحيتهم بأحسن منها ، وجلسوا معنا وقد علمنا أنهم قد باتوا فى هذه الضاحية من أول الليل ليبادرونا بالتلقى وليأخذوا منا وعداً بالقاء كلمات أو محاضرات عليهم لأنهم من طلبة العلم وأولى الناس بان يكون حظهم منا أوفر؛ فوعدناهم بتسنية طلبهم وأبدينا أسفنا لما لاقوا فى سبيلنا . وبعد دقائق معدودة كنا فى محطة لاهور . وكان فى استقبالنا جمهور من أفاضل الطلبة ومحررى الصحف وغيرهم ومنهم السيد محمد الهاشمى وبعد أن ألبسونا العقود الزهرية راغ السيد محمد الهاشمى روغه فأتى إلينا بسيارة يسوقها سرى من سراة البلد لتقلنا إلى الفندق، وكان ذلك السائق هو نجل السير سكندر حياة رجل الساعة فى البنجاب ، وقد صار رئيس الوزراء فى هذه الناحية فيما بعد فشكرنا لهما هذه الأريحية . وقد كنت فى النصف الثانى من السنة الماضية أرسل بخطابات منى إلى السيد الهاشمى ليوصلها إلى السيد أحمد على المبارى الذى كان طالباً فى الأزهر قبل ذلك .

وبعد أن استقر بنا المقام فى الفندق وصل إلى كتاب كريم من صديقى وابن صديقى الأستاذ أحمد صادق بكر مراقب قسم الانتاج بالاسكندرية يذكر لى أنه لقى خان بها دور الكلونيل مقبول حسن قريشى وزير الحقانية بيهاولبور ووزير المهام الخاص لسمو النواب وقد ذكر له البعثة وصداقى له ولوالده من قبل فطلب منه الوزير عنوان البعثة ليرسل إلى النواب ليطلبها إلى بلده . وذكر له أن النواب معنى بالأمور الأسلامية وأكد على صادق بكر بأجابة طلب النواب متى أرسل الينا .

وفى هـذا اليوم ذهبنا جميعاً إلى السير محمد إقبال شاعر المسلمين فى الهند وفيلسوفهم فأقمنا معه برهة طويلة من الزمن،والرجل مريض قد ذهب صوته إلا قليلا ونحل جسمه ولكنه كبير الروح عظيم الشخصية كما عهدناه من قبل وأن ذلك الجسم الذى نهكته الأمراض لازال يحمل عقلا صحيحا وروحاً سليما ورأياً

ناضجاً وكنا نريد عدم إطالة الحديث إشفاقاً عليه ولكنه كان يأبى إلا أن يسترسل وقد أتى بخريطة بلاد الهند وكان يضع يده على كل قسم من الأقسام المهمة ويتكلم عنه وعن أهميته والحال النفسية والدينية لأهله وما الذى يرجى لأهله فى المستقبل ومن فيه من المنبوذين والكيفية التى يصلح العمل بواسطتها فى كل أقليم من الأقاليم . فتكلم على سورات داسام وبرما وتاجبور وحيدراباد وترافنكور وغير ذلك، وتكلم عن نفسية الهنادكة وما يضمرون من الشر لأهل الاسلام فما اثبته من قوله « إن الهنادكة يزعمون أن المسلمين لهم رغبة صادقة فى بقاء الانكليز حكاما فى البلاد لخوفهم من أن تجرفهم قوة الهنادكة الذين هم الأكثرية الساحقة .

والحقيقة أن الرغبة الصادقة فى بقاء الانكليز فى الهند إنما هى صادرة من الهنادكة، وذلك أنهم يخشون جانب الأقلية الاسلامية الفقيرة،أما كونهم يحسبون الحساب للأقلية الاسلاميه أن تفتك بهم فلانهم يعرفون حق المعرفة قوة المسلمين وجرأتهم على القتال إذا جد الجد ؛ ودليلى على ذلك أن السنج أخذوا مسجداً إسلامياً ووضعوا أيديهم عليه وحاول المسلمون استرداده برفع الشكايات إلى الحكومة فلم تنلهم حقهم فعولوا على أن يحكوا جلدهم بظفرهم وأن يتولوا أمرهم بنفسهم وأن ينتزعوا المسجد من يد السنج عنوة فجاء البوليس لرد المسلمين بقوة السلاح وأطلق عليهم الرصاص فأصاب اثنين وعشرين من المسلمين كانت كل إصاباتهم فى صدورهم ولم يوجد بينهم من أصيب وهو مول ظهره ومثل هذه الجرأة وهذه المعاداة لاتوجد فى الهنادكة مطلقاً — وعلة كون المسلمين فقراء أن الحكومة الانكليزية حين وضعت يدها على هذه البلاد لم يقم لمنازعتها سوى المسلمين فلما ملكت ناصية الحال استهدف المسلمون لعسفها وجورها ونزعت أموالهم من أيديهم بالقوة وصيرت أموالهم وأراضيهم فى أيدى الهنادكة وكف المسلمون عن التعاون معها فاستعانوا الهنادك فأعانوهم .

وحينئذ وجدت الفرصة سانحة لاثراء الهنادك إثراء فاحشاً وبقى المسلمون فى فقر مدقع وصارت دنيا الهند فى أيدي الهنادك بالتجارةوالوظائف الحكومية

وأملاك المسلمين التى أصارها الانكليز إلى الهنادك وزاد فى حال المسلمين سوءا أنهم نفروا من الانكليز نفرة شديدة وأبوا أن يتعلموا فى مدارسهم فسبقهم الهنادك إلى كل وظائف الدولة ومرافقها — وكل ما يخشى عليهم الآن مما بقى فى أيديهم أن تفتر عزائمهم ببعدهم عن الدين الذى هو القوة الباقية والحصن الواقى ونحن نريد أن نغذيهم بالدين لتبقى لهم القوة ويبقى الدين قوياً فيهم ولهم ».

فقلنا له — وهل من برهان قاطع على ما تقول من أن المسلمين غير ميالين إلى الانجليز كما تقول ؟

فقال « إن أمثال هذه العواطف والميول لا يكتب بها صك ولاتسوّد فى بطون الكتب ولا تخلد فى الدفاتر - ثم سكت قليلا وقال - قد وجدت البرهان حاضرا فاذهب فاعلم أنك ستاقى محاضرة فى المكان الفلانى فى الساعة الفلانية تنتقد فيها السياسة الانجليزية ثم انظر من الذين يتهافتون على سماع المحاضرة الانتقادية ، لاشك أنك تجد عددا لايحصى من المسلمين قد حضروا إلى المكان فى الموعد وإنى لأشك أن يوجد ثلاثة من الهنادك .

ثم اذهب واعلم أنك ستاقى محاضرة فى زمان كذا ومكان كذا تبين فيه محاسن السياسة الانجليزية ثم انظر من يحضرون إلى المكان الذى أعد للمحاضرة فلا شك فى أنك تجد عددا لا يحصى من الهنادك ولا تجد ثلاثة من المسلمين »

فقلنا إذاً ينحصر ضعف المسلمين فى قلة عددهم وفقرهم وجهلهم ، فقال : « إن قلة العدد لا تخيفنا ، فان المسلمين إذا جتمعوا وكانت قلوبهم متحدة فان خطر القلة لا يؤبه به . والفقر ليس مما يخيفنا فانا نراهم إذا جد الجد يقدمون على العظائم بلا خوف ولا وجل وإنما الخوف كل الخوف من أن تتراخى فيهم الحمية الدينية والذى يهمنا الآن أن نشرب قلوبهم الحمية للدين وأن يشعروا بالعزة الاسلامية وأن يوقنوا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

إن البعثة الأزهرية جاءت إلى هذه البلاد أحوج ما كانت البلاد إلى مجيء مثلها ، وإن قدومها ليشعر قلوب المؤمنين أن الاسلام له بقية وأن له أنصاراً

يعاضدونه ويحرصون على إشاعته وإذاعة فضائله من وراء البحار . »

ومن الأدلة التى أقامها على تعويل الهنادك على اعضاد الهنادك بالقوة الانجليزية أن المسلمين فى كشمير يزيد عددهم على ٩٠ ٪ من سكان البلاد يحكمهم مهراجا وثنى ونسبة عددالوثنيين هناك لايزيدعلى ٥ ٪ . فلماقام المسلمون منذ عهد قريب طالبين إسقاط المهراجا وأن يكون الحكم فى البلاد للاغلبية المسلمة التجأ المهراجا إلى الانجليز طالبا منهم حمايته من الأكثرية من رعيته فقبل الانجليز أن يحموه على شرط أن يقبل وجود مستشار إنجليزى، فرضى بما طلبه الانجليز وصار المستشار الانجليزى بيده كل شىء فى تلك البلاد وله الأمر النافذ على المهراجا الهندوكى .

قال السير إقبال « على أثر ذلك ذهبت إلى رجال الحكومة وقابلت نائب الملك وقلت له : إن كان قصارى جهدكم أن تكونوا حكاماً فقط فاسمحوا لى أن أرسل خمسه وعشرين الفاً من المسلمين ليهاجموا كشمير ويقتلوا الأقلية الهندوكية ثم تفضلوا أنتم واحكموا تلك البلاد ولا تكون محكومة باقلية ضعيفة من الهنادك . »

عندئذ قلنا للسير إقبال : إن ما تقوله بشان بلاد كشمير يقوله الانجليز فى الولايات التى حكامها من المسلمين والمسلمون هناك أقلية . فكان جوابه أن الحكام الذين يحكمون أكثرية هندوكية كانت الفرصة سانحة لهم ولآبائهم وأجدادهم بان ينشروا دعوة الاسلام حتى يكون الاسلام أكثرية ساحقة ولكن القوم ألهاهم التكاثر فى الأموال ورضوا بما أحاطوا به أنفسهم من عزة الملك وأبهته ، وقصروا فى واجبهم الدينى ومن العدل أن يتجرعوا الكأس المريرة التى هى عصارة تقصيرهم فى حق دينهم ، إهمالهم لشأنه فلاتبالى ما يصنع معهم .

ثم قال : « ومن الأدلة على أن الهنادك يريدون أن يزيلوا الحكم الفعلى الانجليزى مع بقاء الحكم الاسمى فقط للانكليز وأن يكون تحكمهم فى مستقبل المسلمين لا معقب له وأن يتناولوا الكستنا من النار بمخالب الهر الانجليزى . وأن بعض كبار الرجال من المسلمين عرض على رجال الكونجرس الذى يصدر الهنادك عن رأيه أن يكون الحكم فى الولايات التى أكثريتها من المسلمين فى يدالأكثرية

الاسلامية مع ضمان حقوق الأقليات ، والولاية التي أكثرها هندوكية حكومتها تكون بيد الأكثرية الهندوكية مع حفظ حقوق الأقليات الأخرى ؛ فلووا رءوسهم وأعرضوا .

وقالوا نريد أن ننسى الدين وأن يكون أهل بلاد الهند كلهم وطنيين هنديين وأن يكون الحكم الفعلى بيد الأكثرية الهندوكية التى يمثلها الكونجرس والحكم الاسمى للأنجليز فى نظير أن يحموا الهند من الدول الأخرى المجاورة والأفغان وإيران، أى أن يكون الانجليز بوليساً حربياً او وقاية حدود الهند من إغارة جيرانها فى نظير الاعتراف لهم بالحكم الاسمى . وبذلك يقضى على المسلمين فى الهند قضاء لا مرد له — على أن كثيرا من قادة الرأى من الهنادك لا يخفون نياتهم السوداء وما يضمرونه من السوء للمسلمين فهم يصرحون من فوق منابر الخطابة أنهم متى نالوا الاستقلال وحكموا البلاد فانهم لا يبقون فى الهند مسلما لأن المسلمين دخلاء طارئون على هذه البلاد . وقد صرح بذلك مونجى وغيره من زعمائهم فى السنين الأخيرة . ومما حدث أخيراً (اى ونحن فى الهند) . ان الزعيم جوهرلال (وهو ابن الزعيم مرتبلال نهرو) وهو شاب معمور الفؤاد بالهندوكية والبولشفية معاً ، جاء إلى لاهور فى أثناء الانتخابات وكان مجيئه إليها من مدراس طائرا فلما وقف لالقاء إحدى خطبه الانتخابية قال (إن فى الهند قوتين تتنازعان : الكونجرس والحكومة الانجليزية) فرد عليه الزعيم المسلم الكبير (السير محمد على جناح) قائلا إنك نسيت قوة ثالثة قوية وهى القوة الاسلامية فان ثمانين مليونا من الناس قوة يحسب العاقل حسابها ، ولكنك معذور لأن عقلك طائر بين بنارس الهندوكية وموسكو البولشفية — ومما ساقه السير إقبال على أن الفقر والقلة لا يهدان عزائم المسلمين أنه لما قام النزاع بين المسلمين والسيخ على مسجد بلاهور ، قامت قبائل الوزيرية وهم من القبائل الضاربة فى الجبال المحيطة بمضيق خيبر وهذه القبائل يحسب الانجليز لمقدرتها الحربية ألف حساب وحساب، وطلبت من القوة الانجليزية أن تبرز لحربهم ، وقد استعد الوزيرية للحرب استعدادا عظيما فلم تبرز لهم القوة الانجليزية مع إلحاح الوزيرية فى الطلب فأرسل الوزيرية إلى السير إقبال خطابا (وكان

فى بهوفال) يقولون له: إنا نعلم إنك صديق الانجليز وقد خرجنا مستعدين لقتالهم فلم يبرزوا لنا فنرجوك أن تقنعهم بأن يبرزوا لقتالنا . وفى النهاية ذهب إليهم كبير الضباط فى منطقة الحدود وسألهم عن سبب تهيئهم لحرب الانكليز وهم لم يأتوا موجبا لذلك ؛ فقالوا له : كيف تقول هـذا وأنتم أعطيتم السيخ مسجد المسلمين به فقال : إن المنطقة التى نحن فيها لم يكن بها مسجد أخذه السيخ وهذا الحادث إنما هو فى لاهور فقالوا له إذن دعنا نذهب لمحاربة السيخ فى لاهور فلم يزل بهم حتى أقنعهم بأن ذلك ليس من اختصاصه وأن المسألة قد انتهت ولم يبق لها أثر . ثم قال السير إقبال أن الهنادك يحرصون الحرص كله على شيئين : هما تركيز المال فى الهند فى أيديهم ، ونظام الطبقات . ولكن من سوء حظهم أن العالم فى هذا العصر تلتقى فيه موجتان تريد كل منهما أن تطغى على الأخرى وتزيل أثرها : إحداهما الديموقراطية وهى إذا قويت واجتاحت الحدود إلى داخلية الهند أزالت الارستوقراطية الهندية وقوضت نظام الطبقات وأتت على بنيانه من من القواعد ، والثانية البلشفية وهى إذا تغلغلت فى الهند أزالت الرأسماليه وبذلك ينهار غنى الهنادك وثراؤهم وتصبح أيدى الهنادك مما علقت به صفراً

على أن كثيراً من المسلمين قد اغتروا بسفسطة الهنادك التى يخفون وراءها كل نية سيئة ينوونها للمسلمين ، وقالوا بما يقوله رجال الكونجرس من اعتناق الوطنية الهندية واطراح الأديان جانباً مثل الدكتور الصارى عليه رحمة الله ، ولكنهم كانوا مخطئين وقد رجع بعضهم الى الصواب نابذاً تلك الفكرة وقد ذكر لنا السر إقبال مسألة لا يعلمها كثير من الناس وهى أن الانجليز لما دخلوا فى غمار الحرب العظمى احتاجوا فى الميادين الأوربيـة الى قواتهم التى كانت فى الهند فلم يبق لهم فى تلك البلاد سوى خمسة عشر ألفاً كانوا يطوفون بهـا فى إحدى المدن نهاراً ، ثم تسافر إلى مدينة أخرى ليلا ثم يجعلونها تطوف فى شوارع تلك المدينة فى يوم آخر، ثم تسافر إلى مدينة أخرى ليلا ؛ فكانت كل مدينة يعتقد أهلها أن الجند المقيمين عندهم خمسة عشر ألفاً فى حين أن جميع الجند فى الهند يبلغ خمسة عشر ألفا .

ومع هذا فقد خشيت حكومة الهند أن ينقض عليها جيرانها وهى على تلك الحال ، فأرسلت رجلا من الضباط العظام فعقـد معاهدة مع حبيب الله خان فى كابل تعهد فيها بأن لا يهاجم حكومة الهند؛فكان ذلك سبباً فى اغتيالة بطريقة لم تزل من الأسرار الغامضة . وقصارى القول أن السير محمد إقبال كان راسخ الايمان بأن الأقاليم الشمالية من بلاد الهند التى أكثريتها إسلامية لا مناص من أن يأتى عليها وقت تكون مستقلة فيه على نسق الولايات المتحدة ، وهى البنجاب وكشمير وولاية الحدود والبنجاب والسند وبلوخستان وقد وضع لها مقدماً اسم (باتستان) أى الأرض المطهرة أو أرض القداسة وكان يصرح بذلك للانكليز أنفسهم . والسير إقبال من الأفراد القليلين الذين كتبوا صحيفة حياتهم بأحرف من نور، لم تؤخذ عليه فى حياته الخاصة أو العامة هفوة أو نبوة أو كبوة بل كان جهاده لدينه وأمته وللانسانية مخلصاً مجاهداً فى الله حتى وافاه الأجل المحتوم ، وقد دفن فى باد يشاهى مسجد وهو أعظم مسجد رأيناه فى لاهور أنشأه المرحوم ساهجات المغولى وله حوالى ثلاثمائة سنة وعلى جانبيه الشمالى والجنوبى حجر يبلغ عددها فى كل جانب عشرين حجرة وقد طال تأملى فى تلك الحجر حين صلينا الجمعة فى ذلك المسجد يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣٧ وكان ظنى قد سبق إلى أن تلك الحجر كانت مساكن لطلبة العلم ولـكن منعنى من ذلك أنها لا أبواب لها وادركت أنها تحتوى قبوراً لأولى النباهة والفضل فرحمه الله رحمة واسعة وعزى آله والمسلمين فيه عزاء جميلا .

« من مذكراتى عن البعثة الأزهرية فى الهند »

عبد الوهاب النجار

لبنان

الأستاذ عبد الحميد زيدان

المدرس بكلية المقاصد الاسلامية ببيروت

هبطتُ دوحتكم من قمّة الهرمِ فإنّ فى الدوح تغريدا لذى النغم
فى أيكة الأرز تشدو كلّ صادحة وفى ربى الأرز ترنيم لمنسجم
مناظر تخلق الفصحى وتبعثها وتنفث السحر فى نثر ومنتظم
سحر حلال تراءى فى تمائمه تخاله الناس منظوما من الكلم
أوحى الخيال ربى طاف الغمام بها تخلّف السرّ فى القيعان والرّيم
كأنّ هاروت ألقى سرّ صنعته بكلّ رابيــة منهلّة الدّيم
تفتح الزهر فوق الطود وازدهرت بدائع الروض تكسو عالى القمم
كأنما جنة الفردوس قد خلقت فى سفح لبنان للموعود بالنعم
من جاء لبنان فليظفر بجنته فى هذه الدار قبل الموت والعدم
وليحمد الله لا يكفر بنعمته وليحى فيها بقلب شاكر وفم

☆☆☆

أيحتفى بهزار النيل فى جبل أزهى من النهر يحكى ثغر مبتسم
أم هل يذاد طريد البوم عن شجر ينمو بأرض كرام من ذوي الرّحم

فهم بنو الدين والفصحى لقد مزجوا ... سحر البيان بحسن الخَلْقِ والشيم
شمّ الأنوف إلى غسان قد نسبوا ... سيما عروبتهم فى ذلك الشمم
تلقى الوجوه من الإيمان مسفرة ... يبدّد النور منها حالك الظلم
كادت سماحتهم تنسى الفتى وطنا ... لولا محبته لانحاز للكرم
وفّوا بعدهمو لله واصطبروا ... على عوادى الليالى رافعى العلَمِ
ما فرّطوا فى كتاب الله أو تركوا ... من سنّة المصطفى بابا لمقتحم
بل جاهدوا فى سبيل الله وأتمروا ... على الصلاح ببذل المال والهمم
مقاصد الخير تبدو فى فعالهمو ... وقاصد الخير لم يكسل ولم ينم
أكرم بقوم تولى أمرهم عمر ... وبالسّمِىّ تداعى هيكل الصنم
كأن شيعته الأنصار قد نصروا ... من قام يدعو إلى الإسلام بالحكم
عزّوا نفوسا فسادوا فى تواضعهم ... بعزّة النفس والأخلاق والقلم
بالاتحاد تواصى القوم فاتحدوا ... وأصبح الجمع منهم جدّ ملتئم
ببرهم صيروا بؤس الفقير غنى ... وعطفهم نعم الأيتام باليُتُمِ
حازوا الفخار ببرديه فما تركوا ... للناس من بعدهم غنما لمغتنم
لبس الفخار بملك أنت تملكه ... لكن بفضل ينجّى الناس من ألم

✡ ✡ ✡

كنانة الله ترجو نصر إخوتها ... وتبتغي للعراق الخير والشّامِ
فأرسلت من سهام النيل أصلبها ... عودا ليرمى بها في الحادث العمم

فسدّدوها إلى العجمى بساحتكم ... فإنها إن تسدّد تُرْدِ أو تَصِم
تمزّق الجهل والإلحاد فى زمن ... طمّت رطانته كالجارف العرم
من حرّف القول أضحى عالما فطنا ... مجدّدا خاليا من وصمة القدم
كأنما بدعة التجديد عندهمو ... أن يهدموا ما بناه العرب للأمم
لكنّ مصر أعز الله دولتها ... قامت تذود وترمى عن حمى الأجم
« دار العلوم » بها أدّت رسالتها ... فأخرجت من بنيها راصد الرُّجُم
عزّ البيان وعزّ الدين وا كتسحت ... فصاحة العرب فيها لكنة العجم
فلن ينال عدوّ الضاد بغيته ... وسوف يرتدّ عنها شرّ منهزم
تأبى زعامة مصر أن تهادنه ... حتى يخرّ لها فى موطئ القدم

✡ ✡ ✡

دين الحنيفة سمح فى مخالطة ... نزيله دائما فى الأشهر الحُرُمِ
ما ضاق صدرا برهبان ولا قسس ... خلّوا شعائره موفورة الحُرَمِ
لكنه علقم مرّ إذا انتهكت ... تلك الشعائر من عاد ومجترم
دين السلام فعيشوا فى سماحته ... فى ظلّ شعب بحبل الله معتصم
لا تنفثوا سمكم فيه فتفسده ... تلك السموم وإن آذته يضطرم
محضتكم نصح من يرجو مودتكم ... ليس الذى ينشد الحسنى بمتّهم

✡ ✡ ✡

على الكنانة دين حلّ موعده ... ونيلها للوفاء أنهار بالأطم

يشقق ليوفى لم يخفر بذمتـــه ودائن النيـل لا يرتدّ بالنّـدم
فإن عَمْرًا أتاها في دجنّتها فأشعل النور في الوادي وفي الأكم
وفكّ قيـدا وأغلالا وأطلقها من ربقة الظلم والإرهاق واللجُم
فـكان حقّا عليها نصر منطقه ودينـه في دياجي دهرها الهرِم
هـذا وفاء بدين العرب تعرفه مصر ولا تتناسى كاشف الغُمم
فإن رأيتم بنيها اليوم قد وفدوا فإنمـا حمـلوا بعضا من الذمم
جاءوا شبابا وليسوا من مشايخها يمثـلون شباب الملك في عظم
قد بثّ فاروق في الدنيا فتوّته عزّ الشباب وسامى حكمة الهرَمِ

« بيروت » عبد الحميد زيدان

العفو في الإسلام

نظرية مستنبطة من الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر العفو

بقلم الأستاذ محمد مهدى علام
مدرس اللغة العربية بجامعة مانشستر

تمهيد :

وضعت نواة هذا البحث فى بضع صفحات منذ ست سنوات فى أحد كتبى[1] ، ولكننى كنت أشعر دائماً بأن للنظرية بقية يجب أن أترجمها من ذهنى إلى القرطاس وقد أتاحت لى جامعة مانشستر فرصة المحاضرة فى هذا الموضوع للأ من أهل العلم . فكتبت ما أعتقد أنه رأيى الأخير فى هذه النظرية التى ملكت علىّ نفسى منذ عدة سنوات ولكننى ما فرغت من تسطير النظرية بالانجليزية حتى شعرت بأن فى عنقى ديناً لقراء العربية عامة ، ولقراء « صحيفة دار العلوم » خاصة ؛ فشرعت أكتبها بالعربية ، وهأنذا أتقدم بها لقراء العربية كما تقدمت بها لقراء الانجليزية .

الغرض من العفو :

إن البحث فى الغرض من العفو يدعونا للبحث فى الغرض من العقوبة ، وحسبنا أن نذكر هنا أن المشرعين قد ارتأوا فى العقوبة آراء مختلفة يمكننا أن نرجعها إلى مذاهب أربعة :

(١) فلسفة العقوبة ، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ .

(١) العقوبة الانتقامية : ويرى دعاتها أن الجانى ينبغى أن ينال جزاء ما اقترفت يداه .

(٢) العقوبة الرادعة : وينادى أصحابها بأن الغرض من العقوبة هو كف المجرم عن العود للإجرام .

(٣) العقوبةالواعظة : ويرى أشياعها أن غاية العقوبة وعظ الناس (الذين لم يجرموا بعد) حتى لا يقعوا فى الإجرام .

(٤) العقوبة المصلحة : ويرى دعاتها أن العقوبة ليست إلا علاجاً للمجرم نعالجه به ليبرأ من حالة نفسية شاذة هى ما يسمى عادة بالإجرام .

وأحدث ماوصل إليه علم الأخلاق هو الأخذ بمذهب الإصلاح فى العقوبة - بل بهذا المذهب أخذ بعض المشرعين حديثا فى بعض بلاد أوربا وأمريكا - وإذا كان الغرض من العقوبة هو إصلاح المذنب إصلاحا نفسيا يعيده إلى المجتمع الذى يعيش فيه عضوا سليما ، بل وليا حميما ، فكل وسيلة شريفة تحقق ذلك الغرض تكون عقوبة أو تحل محل العقوبة . والعفو - فى بعض الأحوال - يحقق هذا الغرض ؛ لذلك كان العفو صورة من صور العقوبة .

غير أنه لا يعزب عن بالنا أن العفو علاج غير مأمون إلا فى اليد الحازمة فله نفوس خاصة ، وذنوب خاصة ، وظروف خاصة ؛ وإذا أسىء استخدامه أو أسرف فيه كان جناية محققة . لهذا جاء الإسلام بالعقوبة والعفو جميعا ، ولكنه لم يأمر بالعفو أمراً ، وإنما ندب إليه ندبا . مكن المعتدى عليه من الدفاع عن حقه ، ولكنه أوصاه بالسماحة والعفو بديلا .

وقبل أن أدلى بما استنبطته فى هذه النظرية أسوق الآيات الكريمة التى ورد فيها ذكر العفو فى القرآن ، فهى مادتى فى الاستنتاج وعمادى فى البحث .(١)

(١) ولقد اقتصرت هنا على الآيات النص فى موضوعنا ، تاركا عشرات من الآيات التى ذكر فيها العفو ذكرا عرضيا ؛ ولكن ماتركت لايختلف فى لفظه أو معناه عما أقتبست . وقد حرصت على أن أقتبس ثلاث الآيات التى يبدو للنظرة الأولى أنها لاتساير إحدى نواحى النظرية .ثم حاولت الملاءمة بينها وبين سائر الآيات ، (راجع الفقرة السادسة من النظرية) .

نص الآيات الكريمة

(١) « ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . » البقرة: ٥٢

(٢) « فَاعْفُوا، وَاصْفَحُوا، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ . » البقرة: ١٠٩

(٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى: الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ؛ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ؛ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . » البقرة: ١٧٨ - ١٧٩

(٤) « . . . عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ . » البقرة: ١٨٧

(٥) « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ؛ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ؛ كَذٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ؛ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . » البقرة : ١٩٠ - ١٩٤

(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . » البقرة : ٢٣٥

(٧) وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ؛ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . » البقرة : ٢٣٧

(٨) « لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ؛ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . » البقرة : ٢٨٤

(٩) « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » آل عمران : ٨٩

(١٠) « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . » آل عمران : ١٢٠

(١١) « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » آل عمران : ١٢٩

(١٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ — وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ — وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ؟ — وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ . أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ؛ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . » آل عمران : ١٣٣ — ١٣٦

(١٣) « وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ؛ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . » آل عمران : ١٥٢

(١٤) « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . » آل عمران : ١٥٥

(١٥) « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ؛ فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ . » آل عمران : ١٥٩

(١٦) « لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا ، وَتَتَّقُوا ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . » آل عمران : ١٨٦

(١٧) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ، وَصَابِرُوا ، وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . » آل عمران : ٢٠٠

(١٨) « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا . » النساء : ٤٣

(١٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَعِظْهُمْ ، وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ؛ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . » النساء : ٦٣ — ٦٤

(٢٠) « دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . » النساء : ٩٦

(٢١) « فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا . » النساء : ٩٩

(٢٢) « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ، أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيماً . » النساء : ١١٠

(٢٣) « إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا ، أَوْ تُخْفُوهُ ، أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا . » النساء : ١٤٩

(٢٤) « وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ - إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ - فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاصْفَحْ ؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . » المائدة : ١٣

(٢٥) « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . » المائدة : ١٥

(٢٦) « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ : إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ . قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ! قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ؛ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ؛ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . » المائدة : ٢٧ — ٢٩

(٢٧) « إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » المائدة : ٣٤

(٢٨) « فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ؛ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ؟ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . » المائدة : ٣٩ — ٤٠

(٢٩) « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ؛ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . » المائدة : ٩٥

(٣٠) « اِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » المائدة : ٩٨

(٣١) « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَصْلَحَ ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » الأنعام : ٥٤

(٣٢) « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . » الأنعام : ١٤٧

(٣٣) « إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . » الأنعام : ١٦٥

(٣٤) « اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . ولَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ؛ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . » الأعراف : ٥٥ — ٥٦

(٣٥) « قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . » الأعراف : ١٥٦

(٣٦) « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . » الأعراف ١٦٧

(٣٧) « خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . » الأعراف: ١٩٩

(٣٨) « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . . . . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ؛ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . » الأنفال : ٢٥ — ٢٩

(٣٩) « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . » الأنفال : ٣٣

(٤٠) « وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . » الأنفال : ٤٨

(٤١) « إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ . » الأنفال : ٥٢

(٤٢) « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . » التوبة : ١٢٨

(٤٣) « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ؛ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ . وَاصْبِرْ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . » هود : ١١٤ — ١١٥

(٤٤) « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ . » الرعد : ٦

(٤٥) « وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ؛ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . » الرعد : ٢٢ — ٢٤

(٤٦) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . » الحجر : ٤٩ — ٥٠

(٤٧) « فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ . » الحجر : ٨٥

(٤٨) « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . » الحجر : ٨٨

(٤٩) « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ، وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ؛ وَيَنْهَى

عَنِ الْفَحْشَاءِ ، وَالْمُنْكَرِ ، وَالْبَغْيِ ؛ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . »
النحل : ٩٠

(٥٠) « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ؛ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ ، وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . » النحل : ١٢٥ — ١٢٨

(٥١) « وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ، فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا. »
الإسراء : ٣٣

(٥٢) « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا . » الإسراء : ٥٣

(٥٣) « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . »
الحج : ٣٤ — ٣٥

(٥٤) « ذَٰلِكَ ، وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ، لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ؛ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . » الحج : ٦٠

(٥٥) « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . »
المؤمنون : ٩٦

(٥٦) « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . » المؤمنون : ١١٨

(٥٧) « إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » النور : ٥

(٥٨) « وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلْيَعْفُوا ، وَلْيَصْفَحُوا ؛ أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » النور : ٢٢

(٥٩) « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا . » الفرقان : ٦٣

(٦٠) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ، فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ؛ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . » الفرقان : ٧٠

(٦١) « وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . » الشعراء : ٢١٥ — ٢١٧

(٦٢) « أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ؛ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ . » القصص ٥٤ — ٥٥

(٦٣) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . » العنكبوت : ٥٨ — ٥٩

(٦٤) « فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ؛ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ . » الروم : ٦٠

(٦٥) « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ؛ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . » لقمان ١٧

(٦٦) « لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . » الأحزاب : ٢٤

(٦٧) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا ، وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا . وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَدَعْ أَذَاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ؛ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . » الأحزاب : ٤٥ — ٤٨

(٦٨) « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ . » سبأ : ٤ — ٥

(٦٩) « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ . اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . »ص: ١٦ — ١٧

(٧٠) « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ؛ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . » الزمر : ١٠

(٧١) « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ . » الزمر : ٥٣ — ٥٤

(٧٢) « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ ، وَقَابِلِ

التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذِي الطَّوْلِ ؛ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ . » غافر : ٢ — ٣

(٧٣) « فَاصْبِرْ ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ . » غافر : ٥٥

(٧٤) « نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ؛ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . » فصلت : ٣٢ — ٣٥

(٧٥) « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ، وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . » فصلت : ٤٣

(٧٦) « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . » الشورى : ٢٥

(٧٧) « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . » الشورى : ٣٠

(٧٨) « أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ . » الشورى : ٣٤

(٧٩) « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى : لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ؛ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ .

إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ ، وَغَفَرَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . » الشورى : ٣٦ — ٤٣

(٨٠) « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ، وَقُلْ سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . » الزخرف : ٨٩

(٨١) « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . » الأحقاف : ٣٥

(٨٢) « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ؛ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ، وَإِمَّا فِدَاءً ، حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . » محمد : ٤

(٨٣) « وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ؛ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . » الفتح : ١٤

(٨٤) « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا ؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . » الحجرات : ٩ — ١٠

(٨٥) « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . » ق : ٣٩

(٨٦) « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . » الطور : ٤٨

(٨٧) « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ، الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ؛ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ . » النجم : ٣١ — ٣٢

(٨٨) « ... وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ، وَرِضْوَانٌ ... سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ؛ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ. » الحديد : ٢٠ — ٢١

(٨٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ، يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ؛ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. » الحديد : ٢٨

(٩٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَاتَّقُوا اللهَ؛ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.... وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ؛ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. » الحشر ٤ — ١٠

(٩١) « عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً؛ وَاللهُ قَدِيرٌ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ: أَنْ تَبَرُّوهُمْ، وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، وَظَاهَرُوا عَلَى

إِخْرَاجِكُمْ : أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . » الممتحنة : ١ — ٩

(٩٢) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ؛ وَإِنْ تَعْفُوا ، وَتَصْفَحُوا ، وَتَغْفِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . » التغابن : ١٤

(٩٣) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ، وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . » التحريم : ٧ — ٨

(٩٤) « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ . » القلم : ٤٨

(٩٥) « فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا . » المعارج : ٥

(٩٦) « وَقَالَ نُوحٌ : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَلِوَالِدَيَّ ، وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا . » نوح : ٢٦ — ٢٨

(٩٧) « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . » المزمل : ١٠

(٩٨) « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ،

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ . »

المدثر : ١ — ٧

(٩٩) « . . . . هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى، وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ . » المدثر : ٥٦

(١٠٠) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا . »

الإنسان : ٢٤

(١٠١) « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ . » البروج ١٢ — ١٤

(١٠٢) « فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ ـ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ـ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . » البلد : ١١ — ١٨

(١٠٣) « وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ . »العصر : ١ — ٣

(١٠٤) « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً . »

النصر : ١ — ٣

* * *

تلك هى آيات العفو فى الكتاب الكريم . وقد هدانا بحثها إلى النقط الآتية :

١ ــ أن العفو ليس أصلا فى المعاملة بين الناس ، لأنه قدر زائد على العدالة ، بل هو ظلم بالفعل : ظلم المرء لنفسه بالتجاوز عن حقه ؛ وإنما نسمى هذا الظلم

« عفواً » لأنه اسم جميل ، لهذا الظلم النبيل . من أجل ذلك لم يفرضه الله تعالى ، بل رغّب فيه ، وندب إليه بوسائل شتى . وآية ذلك أنه — عز شأنه — شرع العقوبة حتى يشعر المرء بأن حقوقه مصونة ، وفضلا عن المواضع الخاصة بذكر العقوبة ، قد كرر القرآن مشروعيتها مع كثير من آيات العفو ليلقى الطمأنينة فى قلوب العباد على أن مصالحهم مرعية ، وليكون عفوهم إذ ذاك سماحة خالصة ، لا طاعة مزيفة . وحسبنا أن نذكر هنا بعض الآيات التى ورد فيها ذكر العقوبة مع العفو ، تارة قبله وتارة بعده . وتارة قبله وبعده جميعاً : « كتب عليكم القصاص فى القتلى ... فمن عفى له من أخيه شىء ... » البقرة : ١٨٧ ؛ « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ؛ والله عزيز ذو انتقام . » المائدة : ٩٥ ؛ « اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم . » المائدة : ٩٨ ؛ « فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . » الأنعام : ١٤٧ ؛ « إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم . » الأنعام : ١٦٥ ؛ « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . » الرعد : ٦ ؛ « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم . » الحجر : ٤٩ — ٥٠ ؛ « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » النحل : ١٢٦ ؛ « غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول . » غافر : ٣ ؛ « ... وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، ... ... والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ؛ إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ... ... ولمن صبر ، وغفر . إن ذلك لمن عزم الأمور . » الشورى : ٣٧ — ٤٣ .

(وانظر كذلك - البقرة : ٢٨٤ ؛ آل عمران : ١٢٩ ؛ المائدة : ٣٩ — ٤٠ ؛ الأعراف : ١٥٦ ، ١٦٧ ؛ الأنفال : ٢٥ - ٢٩ ، الحج : ٦٠ ؛ الأحزاب : ٢٤ ؛ سبأ : ٤ - ٥ ؛ محمد : ٤ ؛ الفتح : ١٤ ؛ الحديد : ٢٠ - ٢١ الحشر : ٤ - ١٠ ؛ التحريم ؛ ٧ - ٨ ؛ البروج : ١٢ — ١٤)

وبعد فهذه آيات صريحة فى أن للعقوبة موضعها ، وللعفو موضعه ؛ وهى كذلك صريحة فى أن كفة العفو أرجح . ولا شك أن هذا الطريق الوسط بين العقوبة والعفو أشكل بالحزم ، وأدعى إلى السلم والأمان ؛ فلو شرعت العقوبة

وحدها لملأت الإحن القلوب ، وتمكنت الحفائظ من الصدور ؛ ولو شرع العفو وحده لسادت الفوضى ، واستشرى المجرمون . بل لو شرع العفو وحده لكانت النفس أميل إلى الزهد فيه ، والتبرم به ؛ فليس في طبيعة الإنسان أن يتخلى عن جميع حقوقه ، في جميع الأحوال .

٢ — ولننظر مرة أخرى في تلك الآيات ، فسنرى أن العبارات التي استخدمها القرآن الكريم في العفو مغرية به ، حريصة على تقريبه إلى القلوب ، مما يؤيد ماقلناه : من أن الشارع الحكيم يرغّب فيه ، أولا ؛ وثانياً ، أنه يشعر بأنه ليس اتجاهاً طبيعياً من المظلوم نحو ظالمه . فقد وصف الله تعالى نفسه بالعفو ، ووصف به رسوله الكريم وطالبه به ، ووصف به كذلك المقربين من عباده فوضع بذلك مُثُلا عليا أمام عباده يهتدون بها من غير إلزام :

(ا) فمن الآيات التي وصف بها الله تعالى نفسه بالعفو قوله جل وعلا :

« ثم عفونا عنكم من بعد ذلك ، لعلكم تشكرون . » البقرة : ٥٢ ؛ « ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ » آل عمران : ١٣٥ ؛ « ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . » آل عمران : ١٥٢ ؛ « ولقد عفا الله عنهم . إن الله غفور حليم . » آل عمران: ١٥٥ ؛ « درجات منه ومغفرة ورحمة ، وكان الله غفوراً رحيما . » النساء : ٩٦ ؛ « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما . » النساء ١١٠ ؛ « كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده ، وأصلح ، فأنه غفور رحيم . » الأنعام : ٥٤ ؛ « ورحمتي وسعت كل شيء . » الأعراف : ١٥٦ ؛ « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات . » الشورى: ٢٥ .

(وانظر كذلك - البقرة : ١٩٢ ، ٢٣٥ ؛ آل عمران : ٨٩ ، النساء : ٤٣ ، ٦٤ ، ٩٩ ، ١٤٩ ؛ المائدة : ٣٤ ، ٣٩ ؛ الأنفال : ٢٩ ، ٣٣ ؛ المؤمنون : ١١٨ ؛ النور : ٥ ؛ الزمر : ٥٣ ؛ الحديد : ٢٨ ؛ وانظر « بسم الله الرحمن الرحيم » في بدء كل سورة عدا سورة التوبة .)

(ب) ومما وصف به رسوله — عليه الصلاة والسلام — أو أمره به ، قوله عز شأنه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً ، غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ؛ فاعف عنهم ، واستغفر لهم . » آل عمران : ١٥٩ ؛ « ولا تزال

تطلع على خائنة منهم — إلا قليلا منهم — فاعف عنهم ، واصفح. «المائدة: ١٣؛ «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير .» المائدة : ١٥ ؛ «لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم .» التوبة : ١٢٨ ؛ «واخفض جناحك المؤمنين .» الحجر : ٨٨ ؛ «ادفع بالتى هى أحسن السيئة .» المؤمنون : ٩٦ ؛ «فاصبر صبرا جميلا .» المعارج : ٥

(وانظر كذلك ـ الأعراف ١٩٩ ؛ هود : ١١٤ – ١١٥ ؛ الحجر: ٨٥ ؛ الشعراء : ٢١٥ - ٢١٧؛ الروم : ٦٠ ؛ الأحزاب : ٤٥ – ٤٨ : ص : ١٧؛ غافر : ٥٥ ؛ الزخرف : ٨٩ ؛ الأحقاف :٣٥؛ ق : ٣٩ ؛ الطور : ٤٨ ؛ القلم : ٤٨ ؛ المزمل : ١٠ ؛ المدثر : ٥ ، ٧ ؛ الانسان : ٢٤ ؛ النصر : ١ – ٣)

(ح) ومما وصف به الله تعالى المقربين من عباده ، مقيما منهم مثلا أعلى فى العفو والتسامح ، قوله تبارك وتعالى :

«والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم .... ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها .... والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .» الرعد : ٢٢ — ٢٤ ؛

«وبشر المخبتين : الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم .» الحج : ٣٤ — ٣٥ ؛ «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .» الفرقان : ٦٣ ؛ «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها[1] إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .» فصلت : ٣٣ — ٣٥

(وانظر كذلك ـ آل عمران : ١٣٣ – ١٣٤ ، ١٨٦ ؛ القصص : ٥٤ - ٥٥ ؛ العنكبوت : ٥٨ – ٥٩ ؛ الشورى : ٣٦ – ٣٧ ، ٤٣ ؛ العصر : ١-٣)

هذه مُثُل علياً ثلاثة تنير السبيل لمن شاء أن يتشبه بأخلاق الله ، فإن أعجزه ذلك ، تمثل بأخلاق الرسول ، فإن عز عليه هذا جاهد أن يكون مع طبقة من

(١) الضمير فى «يلقاها» عائد على تلك السجية المفهومة من سياق الآية ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان ؛ وهى منزلة الخاصة من المؤمنين .

الناس ، إن كانت خاصة فإنها على ذلك بشر مثلنا ، لا نشعر بيننا وبينهم بتلك الفوارق التى نشعر بها بيننا وبين الذات العلية ، أو بيننا وبين مقام الرسول الكريم . فلحكمة بليغة وضعت أمامنا هذه المثل العليا ، ولحكمة بليغة كانت على هذا التدرج .

٣ — ولو علم الله أن النفس البشرية تميل بطبيعتها إلى العفو لأمر به أمرا ؛ ولكنه — جل ثناؤه — يعلم أن فى الطبيعة البشرية ألا تأتمر أولاً ، وألا تأتمر بما تشعر بأن فيه تجاوزا عن حقها ثانياً . لذلك لم يأت العفو بصيغة الأمر إلا قليلا ، تحاشياً لإثارة روح العناد الخبيثة فى نفوس البشر ؛ وإنما جاء فى أروع ماتنطق به الأساليب المرغبة النادبة :

« وأن تعفوا أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم . » البقرة : ٢٣٧ ؛ « إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا ، وتتقوا ، لا يضركم كيدهم شيئا . » آل عمران : ١٢٠ ؛ « سارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين : الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ؛ والله يحب المحسنين . » آل عمران : ١٣٣ — ١٣٤ ؛ « وإن تصبروا ، وتتقوا ، فإن ذلك من عزم الأمور . » آل عمران : ١٨٦ ؛ « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم . وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها .... سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار . » الرعد : ٢٢ — ٢٤ ؛ « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . » النحل : ١٢٦ ؛ « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، ... وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه .... » القصص ٥٤ — ٥٥ ؛ « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . » الزمر : ١٠ ؛ « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، ... وإذا ما غضبوا هم يغفرون . » الشورى : ٣٦ — ٣٧ ؛ « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا . » الحشر : ١٠

(وانظر كذلك ـ الحج : ٣٤ - ٣٥ ؛ الفرقان : ٦٣ ؛ العنكبوت : ٥٨ - ٥٩ ؛ الشورى : ٤٠، ٤٣ ؛ الممتحنة : ٧ ؛ التغابن : ١٤ ؛ البلد : ١٧ - ١٨ .)

٤ — وإذا درسنا الآيات التى جاء فيها العفو بصيغة الأمر ألفيناها جميعها — إلا ثلاث آيات (البقرة : ١٠٩ ؛ وآل عمران : ٢٠٠ ؛ والنحل : ٩٠) — مشتركة فى هذه الصفة : وهى أنها ليست خطاباً مباشراً لدهماء الناس الذين يغلب أن يثور فى نفوسهم روح المعارضة والعناد ، إذا أمروا بالتجاوز عن حقهم فى القصاص . فيعميهم ذلك عن إدراك حكمة العفو البالغة ، بل كان الأمر فيها موجها لمن طهرت نفوسهم من خبث التعصب للنفس والعناد . أعنى للرسول الكريم ، أو لصديقه الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، أو لفئة — غير معينة — من المقربين من عباد الله تعالى .

ولا بد أن نشير إلى أن هذه الطائفة تركت غير معينة إطماعا لكل امرىء أن يكون من بينها .

(ا) فمن الآيات التى ورد فيها الأمر بالعفو موجها للرسول الكريم قوله تعالى :

« فاعف عنهم ، واستغفر لهم . » آل عمران : ١٥٩ ؛ « فاعف عنهم . واصفح . » المائدة : ١٣ ؛ «خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . » الأعراف : ١٩٩ ؛ « فاصفح الصفح الجميل . » الحجر : ٨٥ ؛ «واخفض جناحك للمؤمنين . » الحجر : ٨٨ ؛ « ادفع بالتى هي أحسن السيئة . » المؤمنون : ٩٦ ؛ « فاصفح عنهم وقل سلام » الزخرف : ٨٩ ؛ « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . » الأحقاف . ٣٥ ؛ « فاصبر صبراً جميلا . » المعارج : ٥ ؛ « واصبر على مايقولون ، واهجرهم هجراً جميلا . » المزمل : ١٠

(وانظر كذلك ـ النساء : ٦٣ ؛ هود : ١١٤ - ١١٥؛ النحل : ١٢٧ ؛ الشعراء : ٢١٥ - ٢١٧؛ الروم : ٦٠ ؛ الأحزاب : ٤٥ -٤٨ ؛ ص : ١٧ ؛ غافر : ٥٥ ؛ ق : ٣٩ ؛ القلم : ٤٨ ؛ المدثر : ١ - ٧ ؛ الإنسان : ٢٤ ؛ النصر : ١ - ٣)

(ب) وهذه آية أبى بكر تحمل فى سياقها وملابستها دليل ما استنبطنا ، من أن الأمر بالعفو جاء إلى النفوس الكريمة التى لا ترفض طاعته ؛ فقد كان لأبى بكر

قريب فقير يسمى مسطح بن أثاثة يجرى عليه أبو بكر رزقا. ولما ذاع حديث الإفك عن عائشة أم المؤمنين بنت أبى بكر، كان مسطح ممن خاضوا فيه، فآلى أبو بكر ألا ينفق على مسطح بعد ذلك، فنزل قوله تعالى: «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى، والمساكين. والمهاجرين فى سبيل الله؛ وليعفوا، وليصفحوا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ والله غفور رحيم.» النور: ٢٢؛ فلما سمع أبو بكر الآية قال: «بلى، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى.» فرجع إلى مسطح ما كان يجرى عليه.(١)

(ح) وهذه آية جاء فيها الأمر بالعفو لخاصة المؤمنين الذين وصفهم الله بأنهم ذوو حظ عظيم: «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله، وعمل صالحا، وقال إنى من المسلمين؟ ولاتستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.» فصلت: ٣٢ — ٣٥.

٥ — ولنرجع مرة أخرى إلى هذه الآيات التى ورد فيها العفو بصيغة الأمر، فسنجد أن صيغ الأمر يسبقها أو يلحقها فى كثير من الآيات عبارات ملطفة للأمر، مخففة من وقعه على النفس. محرضة على طاعته، معوّضة عما يتجاوز عنه العافى من حقه. ومن أهم ما نلاحظه كذلك فى هذه الآيات أن هذه العبارات الملطفة المعوضة، التى تصحب الأمر، تتناسب كثرة وقلة مع حال المخاطب قربا من الله تعالى. فى آية خاصة المؤمنين نجد أوفى قسط تحتمله العبارة من تخفيف وقع الأمر، فقد وضع الله تعالى المخاطبين فى أحسن درجة لعملهم الصالح فى عدم التسوية بين الحسنة والسيئة، ودفعهم بالتى هى أحسن واستبدالهم بالعدو ولياً حميما، وتخصيصهم بمرتبة الصابرين، ذوى الحظ العظيم. فماذا بقى بعد هذا من جفوة الأمر بالتخلى عن حق فى نظير هذه النعم الجليلة؟ على أن إنعام النظر فى معنى هذه الآية لايجعلها، فى الحقيقة، أمراً بالعفو فى جميع الأحوال

---

(١) تفصيل حديث الإفك فى كتب الأحاديث وفى كل تفسير مطول عند شرح هذه الآية.

فالآية صريحة فى أن يدفع المرء السيئة بالتى هى أحسن . والذى هو أحسن - فى حالة من الحالات — ربما لا يكون هو الأحسن فى حالة أخرى . ولقد يكون دفع الشر أحسن بالعفو مرة ، وبالعقوبة أخرى .(١)

وفى آية أبى بكر نجد قدراً أقل من هذا لتلطيف الأمر على نفس لا شك أنها أقرب إلى قبوله ، ففى الآية عبارتان ملطفتان : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم . »

أما الرسول ، ونفسه أطهر النفوس البشرية وأبرؤها من العناد ، فالأمر بالعفو إذ يوجه إليه لا يشتمل إلا على حد أدنى من عبارات التلطف . فقد أمر بالعفو فى أربع وعشرين آية ، صحب الأمر فى ثلاث عشرة منها تلطيف ، وجاء الباقى مجردا . فمن القسم الأول : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم . » آل عمران : ١٥٩ ؛ « واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . » هود : ١١٥ ؛ « واصبر ، وما صبرك إلا بالله » النحل : ١٢٧ ؛ « اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . » ص : ١٧ ؛ « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا » الطور : ٤٨

(وانظر كذلك المائدة : ١٣ ؛ الشعراء : ٢١٥ - ٢١٧ ؛ الروم : ٦٠ ؛ الأحزاب : ٤٨ ؛ غافر : ٥٥ ؛ الأحقاف : ٣٥ ؛ القلم : ٤٨ ؛ العصر : ١ - ٣ .)

ومن القسم الثانى : « خذ العفو ، وأمر بالمعروف ، وأعرض عن الجاهلين . » الأعراف : ١٩٩ ؛ « واخفض جناحك للمؤمنين . » الحجر : ٨٨ ؛ « ادفع بالتى هى أحسن . » المؤمنون : ٩٦ ؛ « فاصفح عنهم ، وقل سلام . » الزخرف : ٨٩ ؛ والرجز فاهجر .. ولربك فاصبر . » المدثر : ٥ — ٧

(وانظر كذلك ـ النساء : ٦٣ ؛ الحجر : ٨٥ ؛ ق : ٣٩ ؛ المعارج : ٥ ؛ المزمل : ١٠ ؛ الانسان : ٢٤)

وبعد ، أفليس فى وفرة هذا العدد فى أمر الرسول وقلته بل ندرته فى أمر

---

(١) وما قلناه هنا ينطبق كذلك على دفع السيئة بالحسنة أو بالتى هى أحسن فى : الرعد : ٢٢ - ٢٤ ؛ والإسراء : ٥٣ ؛ والمؤمنون : ٩٦

غيره ما يؤيد ماقلناه تأييداً جديداً ، من أن الله لم يشأ أن يجعل الأصل فى الأخذ بأسباب العفو أمراً مفروضاً ؟

٦ — بقى أن ننظر فى الآيات الثلاث التى أشرنا إلى استثنائها فى النقطة الرابعة ، أعنى تلك الآيات التى ورد فيها الصفح بصيغة الأمر فى خطاب الأمة وهى قوله تعالى : « فاعفوا ، واصفحوا ، حتى يأتى الله بأمره . » البقرة : ١٠٩ ؛ « يأيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله ، لعلكم تفلحون . » آل عمران : ٢٠٠ ؛ « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ؛ وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ؛ يعظكم لعلكم تذكرون . » النحل : ٩٠. ونريد أن نقرر هنا أولا أن آية واحدة منها (آية البقرة) هى التى ذكر فيها العفو بلفظه الصريح ، بل بمرادفه الفصيح . أما الآيتان الأخريان ،ففى إحداهما أمر بالصبر بصفة عامة ، بما يشمل العفو وغيره ، فقد يكون الصبر على مكاره لامجال للعفو فيها[1] . وفى الأخرى أمر عام كذلك بالإحسان إلى جانب الأمر بالعدل . ونحن نرى أن ورود الأمر فى هذه الصورة العامة — لا فى صورة خاصة بالأمر بالعفو عن مسىء ، كما ورد ذكر العفو فى الآيات الأخرى — أبعد عن إثارة النفس للعناد ومقاومة الأمر . لأن النفس لا تذكر إذ ذاك إساءة وقعت عليها تشعر بشهوة الانتقام لها ، كما كان يحدث مثلا لو جاءت آية النحل : ١٢٦ على الصورة الآتية : وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، لكن اصبروا فهو خير للصابرين !

ولقد تغرينا وجاهة هذا التعليل بحمل آية « البقرة » عليه . ولكن صراحة ألفاظها ـ على الرغم من غياب ذكر الإساءة أو العقوبة فيها ـ تدعونا إلى تلمس تعليل آخر . ويخيل إلىّ أنه قصد بهذه الآية أن ترد هكذا فريدة ، لتنبه الناس إلى

(١) يلاحظ أن استعمال « الصبر » فى هذه الآية ليس صريحا فى معنى « العفو » صراحة استعماله فى عشرات الآيات الأخرى التى يذكر فيها الصبر بمناسبة العقوبة ، واحتمال أذى المعتدين الخ .

شدة العناية بالعفو والأخذ به ، حتى لا تكون جميع آيات القرآن خالية من صيغة الأمر ، موجهة إلى جمهور الأمة . فاذا قرنت هذه الآية بغيرها من آيات العفو ، استخرج الناس من المجموع المرمى السامى الذى رمى إليه الشارع : من أن العفو مرغوب فيه ، وإن لم يكن مأموراً به .

على أن لنا فى هذه الآيات الثلاث تأويلا آخر نتلمسه فى التعبير البلاغى ، لا فى التعليل الفلسفى . فالأمر كثيراً ما يأتى لغير الإلزام ، فى القرآن وغير القرآن من كلام العرب . فلا مانع من أن تكون قد وردت للنصح والإرشاد ، أو للندب ، أو للاباحة ، أو للتخيير ؛ على مثال الأمر فى قوله تعالى : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً . » وقوله : « فإذا حللتم فاصطادوا . » وقوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله . » وقوله : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . »

٧ — وهذه ظاهرة أخرى تمتاز بها آيات العفو امتيازا يزيد نظريتنا تأييدا ، من أن الشارع الحكيم كان عليما بأن العفو قدر زائد على العدالة ، أو كما سميناه « ظلم نبيل » ، لا تميل إليه النفس ميلا طبيعياً . فنحن نرى أن القرآن إذا عرض للعفو ذكره فى عبارات مطنبة مؤكدة : بالترادف ، أو المفعول المطلق ، أو لام التوكيد ، أو النعت ، أو التذييل . ونحو ذلك . وسبيل التأكيد فى الكلام لا تسلك إلا لحكمة بلاغية ، وهى هنا علم المشرع بأن السامع يغلب ألا يلتقى هواه مع موضوع الكلام . ورغبته — رغبة المشرع — فى زيادة التنبيه على الصفح ، وتحسينه ، والندب إليه ، ليثمر ذلك التأكيد فى نفوس الناس الذين قد يسمو على بعضهم ويعز هذا « الظلم النبيل » :

« فتاب عليكم ، وعفا عنكم . » البقرة : ١٨٧ ؛ « وأن تعفوا أقرب للتقوى . ولا تنسوا الفضل بينكم . » البقرة : ٢٣٧ ؛ « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس. » آل عمران : ١٣٤ ؛ « فاعف عنهم ، واصفح. » المائدة : ١٣ ؛ « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين. » الأعراف : ١٩٩ ؛ « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ... ويدرءون بالحسنة السيئة ... ... سلام عليكم بما

صبرتم.» الرعد : ٢٢ — ٢٤ ؛ « فاصفح الصفح الجميل.» الحجر: ٨٥ ؛ « وليعفوا ، وليصفحوا . » النور: ٢٢ ؛ « وإذا ما غضبوا هم يغفرون ... فمن عفا ، وأصلح... ولمن صبر ، وغفر ... » الشورى : ٣٧ — ٤٣ ؛ « فاصبر كما صبر أولو العزم. » الأحقاف : ٣٥ ؛ « وإن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا » التغابن : ١٤ ؛ « فاصبر صبرا جميلا. » المعارج : ٥ ؛ « واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجراً جميلا. » المزمل : ١٠

(وانظر كذلك : أربعة وأربعين آية أخرى لا يحتاج البحث عن التوكيد فيها إلى كبير مجهود.) (١)

٨ — ومن الوسائل التى رغب بها القرآن فى العفو وزهد فى العقوبة ، أنه كثيراً ما يصحبهما أو أحدهما بتحذير من العدوان والبغى ، وندب إلى الحيطة والتقية : كأنه ينادى بأن فى استيفاء العقوبة عدوانا . أو إشرافا على العدوان ؛ ولخير المرء أن يتجاوز عن بعض حقه . من أن يعتدى على حق غيره . ألم يشرح لنا النبى الكريم هذا التحذير فى أبلغ ما وصل إليه الإيجاز إذ يقول ،عليه الصلاة والسلام : « من استقصى فى حقه لم يترك للشر مأرباً» ؟ (٢) وإلا فبأى تعليل آخر نتبين سر هذا التحذير الذى يلاحق ذكر العقوبة والعفو فى المواضع الآتية ' « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين . » البقرة : ١٩٤ ؛ « وأن تعفوا أقرب للتقوى » البقرة : ٢٣٧؛ « وإن تصبروا ، وتتقوا » آل عمران : ١٢٠ ؛ « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله .... إن الله مع الذين اتقوا » النحل : ١٢٦ — ١٢٨ ؛ « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا

---

(١) ويخيل إلينا أن الله تعالى قد حرز آيات العفو ـ معظمها ـ من صيغة الأمر، ثم استبدل بتلك الصيغة المثيرة للنفوس فى مثل هذه الحالة ، أسلوبا آخر هو التوكيد الذى أشرنا إليه ، فكأن ما فقدته الآيات ـ إن كان قد فقدته ـ من قوة الأمر ، قد كسبته من قوة التوكيد .

(٢) وكأنى بالجاحظ قد ألم بهذا الحديث إذ قال : « ومن رضى ألا يكون بين حاله وحال الظالم إلا ستر رقيق ، وحجاب ضعيف ، لم يجزم فى تفضيل الحلم ، وفى الاستيثاق من ترك دواعى الظلم . »

لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل » الإسراء : ٣٣ : « ... وإذا ما غضبوا هم يغفرون ... والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا ، وأصلح فأجره على الله ؛ إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ... ... ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور . » الشورى : ٣٧ — ٤٣ .

وتتجلى وجاهة التحذير فى صورة أقوى فى آية الحج : ٦٠ إذ يكون المظلوم قد انتصف لنفسه ثم بغى عليه ؛ فهنا لا نراه قد ذكر له حقه فى الانتصاف ثانية ذكراً صريحا ، بل نجد على خلاف ذلك أنه موصى توصية قوية بالعفو عن الانتصاف الثانى : « ذلك ، ومن عاقب بمثل ماعوقب به ، ثم بغى عليه لينصرنه الله ؛ إن الله لعفو غفور . » وتبدو لنا الحكمة فى ذلك إذا أدركنا أن الانتصاف بعد الاعتداء الثانى يغلب ألا يكون قصاصا عادلا ، كما يمكن أن يكون الانتصاف الأول . فشهوة المظلوم للانتقام فى هـذه المرة أجنح إلى الثورة ، وأدنى إلى الجموح . ولعله أن يصبح هو معتديا ، فصانه الله تعالى بتوصيته بالعفو ، وتحذيره من القصاص .

(وانظر كذلك البقرة : ١٩٠ آل عمران ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٠)

٩ — وهذه سبيل أخرى سلكها القرآن فى بيان جمال العفو ، وتحبيبه إلى القلوب ، وتيسير احتماله على النفوس . فكثيرا مايذكر القرآن العفو مصحوباً بصفات أخرى يدعو إليها الدين جميعاً ، وفى ذلك تلطيف وتخفيف من شعور المرء بتخليه عن حقه . وأهم مايبدو لى أن القرآن الكريم قد جمعه والعفو فى طائفة: السماحة فى التعامل بأوسع معانيها ، فهى بذلك تشمل العفو ؛ فاذا قبلنا السماحة فى أصلها ، أو فى فرع من فروعها ، كان من المرجح ألا ننكمش من قبولها فى فرع آخر هو العفو . بهذا وحده أستطيع أن أعلل الجمع بين العفو والتفضل ، وبين العفو والإنفاق فى السراء والضراء ، وبين العفو والإحسان ، وبين العفو والإنفاق سرا وعلانية ، وبين العفو والعمل الصالح ، وبين العفو والتشاور فى الأمور دون الاستبداد بالرأى الخ فى قوله تعالى :

« الذين ينفقون فى السراء والضراء، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين . » آل عمران : ١٣٤ ؛ « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة. » الرعد : ٢٢ ؛ « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان . وإيتاء ذى القربى . » النحل : ٩٠ ؛ « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ... ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ... إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .» النحل : ١٢٥ - ١٢٨ ؛ « والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . » الحج : ٣٥ ؛ « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ؛ وليعفوا ، وليصفحوا . » النور : ٢٢ ؛ « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين. » القصص : ٥٤ - ٥٥ ؛ « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحا ... ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ... » فصلت : ٣٣ - ٣٤ ؛ « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون ... ... » الشورى : ٣٦ - ٤٣ ؛ « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ... ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ... ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ... » الحشر : ٤ — ١٠ ؛ « فك رقبة ، أو إطعام — فى يوم ذى مسغبة — يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . » البلد : ١٣ — ١٧ ؛ « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

على أن بعض الآيات التى صحبت السماحة فيها العفو تستأهل مناكلة خاصة.

(١) ففى آيتى آل عمران : ١٥٩ ؛ والنصر : ١ — ٣ نرى درجة من السماحة

معدومة النظير ، وقد اختص بها الله تعالى رسوله ، حين طالبه بالعفو عن خصومه ، وبالاستغفار وطلب الرحمة من الله لهم : « فاعف عنهم واستغفر لهم ». ولعل التاريخ لا يحوى بين طياته سماحة كتلك التي صفح بها النبي الكريم يوم فتح مكة ، سماحة المنتصر الذى لم يعرف الغل قلبه ، ولم تجد الحفيظة سبيلها إلى صدره ، مطيعاً فيها أمر ربه : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا . »(١)

(ب) وجدير بنا أن نلاحظ أن هذه السماحة لا تقتصر على معاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، بل تمتد إلى معاملاتهم مع غير المسلمين ، وهى ميزة للإسلام فى تعاليمه وفى تاريخه: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبروهم وتقسطوا إليهم . » الممتحنة : ٨

(حـ) غير أن هذه السماحة التى دعينا إليها ونحن نتعامل فى حقوقنا ، ونقضى فى شئوننا ، قد استبدل بها أمر آخر هو الإقساط والإنصاف إذا كنا بصدد الفصل بين فريقين لا مصلحة لنا معهما . عندئذ لا يجوز لنا أن نسخو بحقوق غيرنا . ولهذا قرن العدل بالاقساط فى آية الصلح بين الطائفتين المقتتلتين : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون أخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون . » الحجرات : ٩ - ١٠(٢) ؛ على حين قرن العدل بالاحسان فى آية النحل : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان . . » ، وقرن التواصى بالحق بالتواصى بالصبر فى آية العصر : « إلا الذين آمنوا وعملوا

(١) قارن هذا بما سيأتى ذكره فى رقم ١١

(٢) لعلى فى غنى عن التنبيه على أن هذه الآية قد رسمت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا خطة عملية لما يسمى اليوم « عصبة الأمم » ونظام العقوبات الدولية .

الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . » (١)

١٠ – ومن أروع ما استعمله القرآن للتزهيد فى العقوبة والترغيب فى العفو أسلوب المشاكلة ، وهو ضرب آخر من التحذير من الأخذ بالعقوبة ، والارتياح إلى القصاص . وبيان ذلك أن المشاكلة هى « ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته . » (٢) والأثر النفسى الذى تحدثه المشاكلة فى نفس السامع هو إيقاظها إلى التشاكل والتشابه الذى بين الأمرين اللذين عبر عنهما بلفظ واحد – مع أنهما فى الحقيقة مختلفان ليتأثر السامع بذلك التشاكل فى اتجاهه نحوهما . فمرة يسوى القرآن بين العقوبة والاعتداء بتسميتها جميعا « عقوبة » ، مع أن الاعتداء ليس فى الحقيقة عقوبة : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » النحل : ١٢٦ ؛ « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به . . . » الحج : ٦٠

(١) وكما جاء القرآن داعياً إلى السماحة والعفو فيما يتعلق بحقك الشخصى ، نادباً إلى الإنصاف والإقساط فيما يتصل بحق غيرك ، كذلك جاء الحديث الشريف مسايرا لهذه السياسة الحكيمة « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . » ولولا أننا قصرنا نظريتنا على « العفو الإسلامى كما عبر عنه القرآن » لسقنا عشرات الأحاديث ، وحسبنا هنا أن نذكر فى تأييد ناحية السماحة والعفو قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى . قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وضرب عبده ؛ ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبا ؛ ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه . » وقوله : « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . » ، وقوله « من شدد شُدد عليه . » بل نرى ذلك فى أصرح العبارات فيما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنه : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة . » – وأن نذكر فى تأييد ناحية الإنصاف والإقساط قوله عليه الصلاة والسلام : « زين الله السماء بثلاث : بالشمس ، والقمر ، والكواكب ؛ وزين الله الأرض بثلاث : العلماء ، والمطر ، وسلطان عادل . » ، وقوله عن ابن سعيد الخدرى : « أحب العباد إلى الله تعالى ، وأقربهم منه مجلسا يوم القيامة إمام عادل . » ، وقوله ، عن ابن عباس : « والذى نفسى بيده إن الإمام العادل ليرفع له فى كل يوم مثل عمل رعيته .... »

(٢) انظر شروح التلخيص الجزء الرابع ص ٣٠٩ – ٣١٥ مطبعة السعادة سنة ١٣٤٣ .

— وأخرى يسوى بينهما بتسميتهما جميعاً عدواناً أو إساءة، مع أن العقوبة ليست فى الحقيقة عدواناً ولا إساءة: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم.» البقرة: ١٩٤؛ «وجزاء سيئة سيئة مثلها.» الشورى: ٤٠ وتارة يحيد عن استعمال اللفظين الخاصين بالذنب والعقوبة ليمنحهما جميعاً اسما واحداً عاماً: «ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوماً فقدجعلنا لوليه سلطاناً، فلا يسرف فى القتل.» الإسراء: ٣٣. ومما يمكن إلحاقه بالمشاكلة هنا ذلك السمو فى الايحاء بتسمية الجانى والمجنى عليه أخوين: «فمن عُفِىَ له من أخيه شىء» وأشهد أن ليس بعد هذا إيحاء بالمودة تحل محل العداوة، والصفاء يقوم مقام الجفاء.

١١ — بقى علينا أن ننظر فى ثلاث آيات ذكر فيها العفو محكياً على لسان شخصيات سابقة للقرآن. ولقد سيقت هذه الآيات مساق العبرة والوعظ، ولكنها — على ذلك — تلقى شعاعا من الضياء على الفرق بين فكرة العفو فى الاسلام وفكرة العفو قبل الإسلام. ففى وصية لقمان لابنه يأمره بالعفو على خلاف سياسة القرآن العامة فى عدم الأمر بالعفو:

«يابنى أقم الصلاة، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، واصبر على ماأصابك. إن ذلك من عزم الأمور.» لقمان: ١٧؛ على أن الآية — فيما عدا هذا — تحمل شبها كبيراً بآيات العفو الإسلامى: ففيها العفو مقرون بتعاليم أخرى، وهى مذيلة بجزاء العفو وأنه من عزم الأمور.

أما الآيتان الأخريان فهما اللتان تعنياننا هنا عناية خاصة؛ ففيهما ظاهرة لاوجود لها فى آيات العفو الإسلامى: فآية المائدة: ٢٧ - ٢٩ المحكية على لسان قابيل وهابيل، لا تصحب العفو فيها تلك السماحة الإسلامية التى لا تجعل العفو صورة من صور التعالى والكبرياء، بل وسيلة من وسائل الابقاء على الود وابتغاء الأولياء: «واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق: إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. قال لأقتلنك! قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك؛ إنى أخاف الله

رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، فتكون من أصحاب النار ؛ وذلك جزاء الظالمين . » فأين هذا الإدراك الأولى للعفو من الإدراك الإسلامى الكامل الشامل الذى نجده مثلا فى قوله تعالى : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ؛ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور . » ؟ وفى قوله : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ؛ إن الشيطان ينزغ بينهم [أى حينما ينالهم عذاب الكفار] إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا . » ؟ ألا إن مرمى العفو الإسلامى هو أن تدفع بالتى هى أحسن السيئة ، « فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . » ـ هو أن تَبَرَّ وَتُقْسِط لا إلى المسلمين فحسب ، بل إلى غير المسلمين كذلك ، « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة . » .

وآية نوح : ٢٦ — ٢٨ تقف بالعفو دون مرتبة العفو الإسلامى كما أمر به الله تعالى خاتم النبيين ، وصاحب أسمى ديانة أرسلت للعالمين : « وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ؛ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ، ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا . » هذا دعاء سيدنا نوح عليه السلام يمثل مرحلة من مراحل إدراك العفو ، كما تمثل ديانته مرحلة من مراحل تطور الديانات ؛ ولكل مرحلة من هذه المراحل عصر وَقَرْنٌ من الناس أرسلت إليهم لتلائمهم.[1] ثم أرسل الله تعالى خاتمة تعاليمه بأسمى ما يصل إليه التسامح على لسان صفيه الكريم ، سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم — إلا قليلا منهم — فاعف عنهم واصفح ؛

(١) من المسلم به أن الله تعالى أرسل تعاليمه إلى البشر على ألسنة أنبيائه المكرمين ، وأمر كلا منهم بما يلائم عصره وبيئته وما وصلت إليه البشرية فى كل عصر من النمو الفكرى والأخلاقى بما يجعل دعوتها إلى الدين الجديد فى حدود ما تستطيع إدراكه . فمن ذلك مثلا أن اليهودية جاءت بالقصاص وحده ، والمسيحية بالعفو وحده ، ثم جاء الإسلام بالعقوبة والعفو جميعا . والأمثلة على ذلك كثيرة يعرفها كل من اطلع على مقارنة الديانات . ولاشك أن الإسلام هو أحدث « طبعة » للديانات السماوية .

إن الله يحب المحسنين . » — « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . » — « فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . » — « فاصبر على ما يقولون، واهجرهم هجرا جميلا » . ولقد أشرنا فيما سبق إلى ماطالب به الله تعالى نبينا الكريم من العفو والاستغفار لخصومه : « فاعف عنهم واستغفر لهم . » — « إذا جاء نصر الله والفتح ... فسبح بحمد ربك واستغفره » (١)، ونريد أن نضيف إلى ذلك - مما يؤيد رأينا - قوله تعالى لنبيه : « فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . » القلم : ٤٨ ؛ قال النيسابورى فى تفسيره (٢) : « قال بعض العلماء قوله كصاحب الحوت ، أى أنه كان فى ذلك الوقت مكظوما أى مملوءاً من الغيظ ، فكأنه قيل : لا تكن مكظوما ، أو لا يوجد منك ماوجد منه من الضجر والمغاضبة ؛ وقال جمع من المفسرين إن الآية نزلت بأُحُد حين حلّ بالمؤمنين ما حلّ ، فأراد أن يدعو على من انهزم . وقيل نزلت حين أراد أن يدعو على ثقيف . » ؛ وقال الطبرى فى تفسيره (٣) : « لا تعجل كما عجل، ولا تغضب كما غضب . » فسماحة الإسلام فى العفو صريحة غير مسبوقة .

١٢ — وبعد فقد عرضنا لما جاء به القرآن الكريم عن العفو من حيث الكيف والموضوع ، فإذا نظرنا إليه من حيث الكمّ ملك نفوسنا الإعجاب والروعة لكثرة الآيات التى نزلت فيه ، كثرة توقظ النفوس إلى ذلك المعنى السامى ، والمبدأ الخطير ، الذى يفعل مالا تفعل العقوبة ، والذى إذا أحسن استخدامه قام بما تقوم به العقوبة من غير أن يعقب من شرور العقوبة شراً ؛ فهو ينتزع الإحن من القلوب، ويسلّ السخائم من الصدور ، والله هو العفو الغفور .

محمد مهدى علام

جامعة منشستر

المحرم سنة ١٣٥٧

مارس سنة ١٩٣٨

---

(١) راجع ما جاء فى رقم ٩ (أ)

(٢) تفسير غرائب القرآن ، ج ٢٩ ص ٢٤

(٣) جامع البيان ، ج ٢٩ ، ص ٢٩

ذكرى جمال الدين الأفغانى

٩ مارس سـنة ١٨٩٧ م

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

نهضت مصر ، وكان من الوفاء أن نذكر أول من وضع بذور الحرية فى هذه الديار ، وحمل المصباح ، ونبه المصريين إلى العزة والكرامة والاغتراف من مناهل العلم القديم والحديث. تلك المناهل الصافية الخالصة لنفع الأفراد والجماعات ، ذلكم هو جمال الدين الحسينى الأفغانى . رجل جاء من بلاد الأفغان فى أواسط آسيا فأيقظ النفوس من رقدتها ، وأعلن الحرب على الجمود ، ودعا الناس أن يفتحوا عينهم إلى ما استنبطته العقول الأوربية من العلم الحديث ، وأن يخلعوا الأكفان البالية فيعيدوا لمصر شبابها ، وينقوا الحضارة الإسلامية من الخرافات .

إحدى وأربعون سنة مضت على وفاة السيد الأفغانى والعوامل الاجتماعية والسياسية وأصوات الحرية تهز الشرق هزاً عنيفا ، وتهيب بالشرقيين عامة وبالمصريين خاصة ألا يطمئن لهم مضجع حتى يرفعوا رءوسهم ، ويستردوا مجدهم ، ويقفوا مع العالم المتمدين جنباً إلى جنب ، وكادت دعوة جمال الدين تؤتى أبرك الثمرات ، وصيحته تبلغ مداها . لم يكن جمال الدين أعلم العلماء ، ولا أبرع الكاتبين ، ولا أمهر السياسيين ولكنه كان أخلص المخلصين .

رجل تجردت نفسه من مطامع المادة وأدران الصغائر التى تأكل حسنات الشرقيين أكلا ، وتستولى على أسماعهم وأبصارهم ، وترين على قلوبهم . ذلك داء الشرق الوبيل .

كان السيد شعلة متقدة من الإخلاص لا يأتيها الاتهام من بين يديها ولا من خلفها إلا ما كان من صغائر الحساد وعداوة الذين لا يعقلون . كانت الحكومة

المصرية تجرى على السيد عشرة جنيهات شهريا فى عهد إسماعيل باشا ومع ذلك لم ينج من نقده رجال الحكومة أجمعون ، وهم أحرار فى العشرة الجنيهات تستبق أو تسترد ، وكانت حكومة السلطان عبدالحميد جعلت له فى آخرحياته مرتبا شهرياً قدره سبعة وخمسون جنيها ، وأسكنته فى قصر منيف فى استامبول ، ومع ذلك فقدكان السيد أشد على السلطان عبد الحميد من كى النار وقطع السيوف حتى أقض مضجعه ، وانتقد سياسته الغاشمة ما شاء له الانتقاد ، وخرج جمال الدين من الدنيا فقيراً مسكينا كما دخلها فقيرا مسكينا .

قال السيد رشيد رضا نقلا عن الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« إن السيد الأفغانى لم يعمل عملا حقيقيا إلا فى مصر ؛ فهو المزلزل الأول لجمود الأزهر ، والمصلح للتعليم الإسلامى ، ومؤسس الحزب الوطنى لإيجاد حكومة أهلية صالحة » .

وكتب عنه الشيخ محمد عبده :

« هو لايسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وأخذت الحرية تظهر فى الجرائد . ومن يطلع على أعداد جريدة مصر وجريدة التجارة ومرآة الشرق والأهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا . »

تحدر السيد من أسرة شريفة من بلاد الافغان ـ أوالفرس ـ على خلاف بين المؤرخين فى ذلك، ترتقى إلى الحسين بن على رضى الله عنه ، ودرس العلوم العربية والشرعية والعقلية ، وكان شديد الميل إلى الفنون العسكرية، ثم صار قائدا في بعض الحروب الأفغانية ، وخرج من بلاده إلى الحجاز ليحج ثم عاد إلى بلاده ، وبعد أحداث وفتن جاء إلى مصر فالقى بها عصا التسيار سنة ١٨٧١م وكان ذلك فى أواخر عصر إسماعيل فجذب إليه بعض أذكياء الشباب من طلبة الازهر ولفيفا من كتاب الصحف وأعيان المصريين . وكان مجلسه فى قهوة (متاتيا) أمام حديقة الازبكية أو فى المتنزهات أو فى منزله ، فسمع الناس مالم تعهده آذانهم من

حديث العلوم والآداب والمنطق والفلسفة على نمط خاص مغاير لنمط الأزهر، سمعوا بموقف المسلمين من علوم أوربا ووجوب الاستفادة منها؛ فاتصل خبره برياض باشا رئيس النظار فقربه، وحبب إليه الإقامة في مصر وأجرى عليه راتباً قدره عشرة جنيهات شهريا كما ذكرنا، فاستقر ثمانى سنوات وهى أطول مدة مكثها فى اثناء طوافه بالشرق واوربا، لذلك كان نصيب المصريين من أفكاره الحرة أوفر من نصيب غيرهم من أمم الشرق.

قال عنه أديب اسحاق. من حملة لواء الصحافة فى ذلك العهد:

« إنه كان يتتبع حركة المعارف الأوربية والمستكشفات العصرية، ويلم بما وضع اهل العلم، وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوربا العالية.»

كان أظهر شىء فى السيد جمال الدين الجاذبية وقوة التاثير فتعلق الناس به، يحضر مجلسه أشتات من الناس منهم الصحفى والشاعر والطبيب والمهندس، وبعد أن يتحدث فى الموضوعات العامة التى تشغل بال الناس يجيب عن أسئلة السائلين كالسيل المنهمر لا يتلعثم ولا يتوقف حتى يشتعل رأس الليل شيبا فيعود إلى داره. وكانت الصحافة وليدة فى مصر، فحمل تلاميذه على التمرن على الانشاء الأدبى والكتابة الصحافية ونشر محاسن الدين الإسلامى، والدفاع عنه في الجرائد من طريق القلم الذى يعتمد على العقل والمنطق، وقوة الحجة، ونصاعة البيان أكثر مما يعتمد على النصوص التى لا يؤمن بها الخصم. ثم الكتابة فى السياسة المصرية ونيات أوربا نحو الشرق.

أما الخديو اسماعيل فقد وسع صدره للنقد ورأى فيه طلائع نهضة فكرية كان يسر بها ويشجعها، وأما وكلاء الاستعمار فى مصر فقد تربصوا بالسيد الدوائر، وانتظروا الفرص السانحة للكيد له.

انقادت الطبقة المستنيرة فى مصر من الأدباء والأعيان للسيد جمال الدين فأسس منهم جمعية (ماسونية). كان يجمعهم خفية، ويفيض فى نقد الحكومة، ومقاومة الاستعمار فى الشرق.

وبعد حين تمخضت الحوادث عن (الحزب الوطنى) بزعامة جمال الدين،

فأوفده الحزب لمقابلة الخديو إسماعيل ، ولما مثل بين يديه ذكر له آمال الأمة في الشئون المختلفة من مالية وسياسية .

ثم عزل الخديو إسماعيل وتقلد الأمر الخديو توفيق فانتهز وكلاء الدول الفرصة للانتقام من السيد وهم يعلمون أن جمال الدين هو الذي كان ولا يزال يكشف سياستهم ويحذر الناس مكرهم ، فاقتضت سياسة الحكومة أن تصدر امراً بنفيه ، فقبض عليه في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ وهو ذاهب إلى منزله بعد انتهاء السهرة على عادته ، وحمل في الصباح في عربة مقفلة إلى محطة سكة الحديد ، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس ، وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى الهند ، وصدر بلاغ من الحكومة يقول: « إن هذا الرجل رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » وينذر كل من يتصل بهذه الجمعية .

في سنة ١٩٢١ وأنا طالب في مدرسة دار العلوم ذهبت إلى منزل بعض المعارف لأهنئه بالعيد فرأيت شيخا أحنت السنون ظهره من الأسرة الأباظية فعرفت انه كان من أعضاء الجمعية الماسونية التي أسسها جمال الدين ، وكان من قول هذا الشيخ لي « إن السيد كان مهيب الطلعة . ولما سمعت بنفيه كنت في الزقازيق فذهبت إلى محطتها لاراه فوجدت الشرطة قد أحاطوا به وأنا عالم بفقره وأنه لا يبقى من المال باقية فأخرجت كيس نقودي ، ودسسته في جيبه ، فنزعه مغضبا محتدا وقال : خذ كيسك وإلا القيته تحت القطار . أنا اخرج من مصر وليس في جيبي إلا ريال واحد ، والأسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب . قال المحدث : وخفت على نفسي أن يراني أحد أعطف عليه ، وخشيت المناقشة في ذلك ، فأرجعت كيسي إلى جيبي وتحرك القطار » .

ثم ألزمته الحكومة الإنجليزية بالبقاء في الهند ، وهناك ألف رسالة في الرد على الدهريين . ولما أخفقت الثورة العرابية ، واحتل الانجليز مصر ، سمح له بالسفر حيث شاء ماعدا مصر ، فاختار السفر إلى أوربا ، واستقر في باريس ، وكان تلميذه محمد عبده منفيا في بيروت عقب الثورة فاستدعاه إليه ، وهناك أمده أعوانه في مصر والشرق بالمال والرأي ، وصاروا أعضاء جمعية (العروة الوثقى)

على ان تكون لها صحيفة تطبع فى باريس باللغة العربية بهذا الاسم ، فصدرت الجريدة حادة الأسلوب يدير سياستها السيد جمال الدين . ويرأس التحرير محمد عبده . بسطا على صفحاتها سياسة الشرق والاسلام ، وكانت انجلترا الهدف الذى صوبا إليه سهامهما خاصة .

صدرت الجريدة ووزعت فى بلاد الشرق ، ومما جاء فيها بعنوان (تنبيه)

« وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . »

« ملعون من يمكن الأجانب من دياره . ملعون من يختلج فى صدره ان يلحق عاراً بأمته . ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه . ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به . عجباً عجبا لاحول ولاقوة إلا بالله . »

فاعلنت الوقائع المصرية أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم خمسة وعشرين جنيها ، وظل الانجليز يسدون فى وجهها باب الشرق ، ويعادون من يظنون انه يراسلها أو يساعدها حتى نضب موردها ، وعجز السيد عن إصدارها بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً .

ظل السيد وتلميذه ثلاث سنوات فى باريس ، ثم عاد محمد عبده إلى الشام فصر بعد أن عفى عنه . أما السيد فقد قصد لندرة وهناك أصدر صحيفة بالعربية والأنجليزية تسمى (ضياء الخافقين) تذكر مساوىء الاستعمار وتنتقد استبداد شاه العجم ، فضاق الإنجليز به ذرعاً فوسطوا السلطان عبد الحميد فذهب إليه سفير تركيا برسالة من السلطان ليحل ضيفاً عليه فى الآستانة والرسالة كلها إكبار وتبجيل فقبل الدعوة ، وأعد له السلطان عبد الحميد قصراً جميلا . وفرض له سبعة وخمسين جنيهاً شهرياً ولكن السيد أحس أنه شبه معتقل ،وأن الخدم الذين عينوا له من جواسيس السلطان ، فتضرع للسلطان أن يدعه يسافر حيث شاء ، فلم يسمح له بالسفر ، فأطلق لسانه فى نقد سياسة السلطان الاستبدادية ، وصار بيته موئل الأحرار والناقمين على دولة آل عثمان ، وكان من طبع السيد أنه لايخاف البطش ولا يعرف مداراة الحكام .

أما رأيه فى الاصلاح العلمى والاجتماعى فيتضح من قوله :

« حركتنا الدينية هى اهتمامنا بقطع مارسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى، مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب مجد ، ولا لتخلص من ذل . ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذى حملهم على عدم السعى وراء الاصلاح والنجاح . فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة فى الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب . ولابد ايضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ لنستعين بها على تقدمنا ، لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته . كعلم النحو والبلاغة: يصرف الإنسان جل حياته فى الاشتغال فيهما ، ولا يقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم فى نفسه من الأفكار فى إصلاح للوطن ، وتعزيز للدين . وتقوية للأمة . »

كان السيد جمال الدين شديد الذم والانتقاد لشاه إيران ، فوق انتقاده لعبد الحميد وخرق عبد الحميد، فاشتكاه سفيرها إلى السلطان ، فطلب منه الكف عن مهاجمة الشاه . ولكن حدث أن قتل الشاه بعد ذلك، فاشتدت الريبة فى تحريض جمال الدين ، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه ومنع الناس من الاختلاط به .

وقطع عنه الراتب الشهرى فاشتد عوزه ، وتضاعف فقره ، واشتد عليه مرض السرطان بعد ذلك . ويرجح بعض المؤرخين أنه مات مسموما، إذ أصيب فى أسنانه ، واتصل أعوان السلطان بالطبيب الذى يعالجه، فلقح شفتيه بمادة سامة، واشتد السرطان فى فكيه بعد ذلك ، فعملت له عملية جراحية لم يراع فى إجرائها واجب الإخلاص والذمة ، فتوفى صبيحة الثلاثاء ٩ من مارس سنة ١٨٩٧ م . ولما بلغت الحكومة التركية نعيه أمرت بضبط أوراقه وبدفنه سريعا من غير احتفال .

حدّث الرحالة الروسى الشيخ عبد الرشيد إبراهيم الذى يبشر بالإسلام فى الشرق الأقصى من سنوات ، وقد بلغ من الكبر عتيا ، أن السيد لما اشتد به المرض دعاه بيده لأنه ما كان يستطيع التكلم ، وأخذ قلما وورقة وكتب فيها

« تشهد بالله أن آخر كلام النبي صلى الله عليه وسلم : أمتى أمتى أمتى ، وأنا أقول : ملتى ملتى ملتى . »

ألقى السيد المجاهد فى حفرة ، وكانت الأرض تضيق عن نفسه فوسعته حفرة فى رمسه. واختفى قبره ، وبقى فى القلوب ذكره ، لولا أن قيض الله محسنا أمريكيا محبا للشرق والاسلام هو المستر كراين بحث بين القبور فى مقابر الآستانة عن قبره ، ولما اهتدى إليه أقام شاهدا فخما من الرخام سنة ١٩٢٦ م نقش عليه اسمه ، وهكذا عاش السيد غريبا يحمل هم الشرق كله وبين جنبيه قلب وهبه لخدمة الشرق والشرقيين ، والإسلام والمسلمين ، فلئن ذهب شخصه وتوالت السنون على فقده ، إن الجذوة التى أوقدها لن تخمد أبداً . أسبغ الله على روحه شآبيب الرحمة والرضوان .

حسنين حسن مخلوف

القصة فى الأدب العصرى

للأستاذ على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

ليست القصة على إطلاق معناها بدعة فى الأدب الحديث ، ولكنها فن قديم عالجه القدماء ، وأصاب حظاً من عنايتهم وجهودهم ، ثم انحدر إلينا فيما انحدر من تراثهم الأدبى ألواناً شتى ، تتفاوت قيمة وموضوعاً . وعلى كل منها مسحة من البيئة التى نبت فيها ، وسمة من العصر الذى أظله ، فتوزعته الطوائف ، ولاقى كل صنف حظوة الطائفة التى آثرته ووجدت فيه متاعها الفنى .

فالأمثال الفرضية التى وضعتها العرب على ألسنة الحيوان . والاساطير التى يرويها حفاظ الأدب العربى ورواته . وكليلةودمنة ، ورسالة الغفران ، والمقامات ، وألف ليلة وليلة بما أضيف اليه ، وأدخل فيه ، وقصة سيف ابن ذى يزن — كل أولئك أمثلة للقصة العربية فى عصور مختلفة .

وأعتقد أن لا سبيل إلى تعيين الوقت الذى بدأ فيه الإنسان يصطنع القصة بعد ان استقرت حياته ؛ لأن وجودها على ما يظهر لا يرتبط بطور خاص من أطواره ، ولا يستوجب حالة معينة من حالاته . وإنما هى لازمة من لوازمه ، يضطر إليها إضطراراً فى بعض مرافق الحالات مهما تكن درجتها ، وأياً كانت الصبغة التى تصطبغ بها . فالانسان إذا تحدث يعنيه طبعاً إقبال السامعين عليه ، وارتياحهم لحديثه ، وإعجابهم به . فهو لذلك يحرص أن يجعل حديثه شائقاً جذاباً ، فاذا لم تسعده مواهبه الشخصية ، أو لم يكن له من مكانته الاجتماعية ، أو من الموضوع الذى يتحدث عنه — عوض يكفل له التسلط على المسامع ، والاستئثار بالانتباه . فربما لا يرى بأساً من التزيد فى الحديث : يصل به الحواشى والذيول ، ويفخم وقائعه بالتهويل والتخيل ، وذلك هيكل القصة أو نمط منها بسيط

وللقصة اليوم شأن جليل ، ومنزلة لم تبلغها من قبل . ولا تزال العناية بها تزداد يوماً فيوماً ، فكثير من الكتاب والمتأدبين يعالجونها وضعاً ونقداً ، أو دراسة وتعقيباً ، والجمهور بها مولع ، وعليها حريص ، يقرؤها مكتوبة ، ويشهدها ممثلة فى دور التمثيل أو الخيالة ، وتعنى بها وزارة المعارف وبعض أصحاب الأموال والأعمال : يقيمون لها المسابقات أحياناً ، ويرصدون الجوائز لأصحاب القصص البارعة للتمثيل أو النشر .

على أن نتاج أدبائنا منها لا يزال قليلا ، بل قليلا جداً بالاضافة إلى رغبة الجمهور وإقباله، ولذلك نرى القصص الغربية المعربة تتدفق تباعاً من المطابع العربية . ولعل أهم ما تمتاز به غلبة السرعة عليها فى الترجمة والطبع ، وفى الهيئة والشكل . وهى مع ذلك نافقة السوق لا يكاد شىء منها يبور . والقصص الغرامية والشرطية أكثرها رواجاً ، وأشيعها تداولا ، وأحبها موضوعاً إلى نفوس القارئين .

وليس عجيباً ان يكون للقصة هذا الشان العظيم . فالقصة الصالحة من أمتع معارض الحكمة ، وأنجع الوسائل لبث موعظة ، وتغيير منكر ، وبسط رأى ، واستصلاح أمر ، ونشر دعوة . وهى بعد محببة إلى النفوس ، قريبة من أفهام الشداة والدهماء ؛ لقلة مئونتها ، وغلبة الغرابة والمفاجأة على حوادثها ، و كثرة المشوقات فيها .

وبحسبك — ولله المثل الأعلى — أن كتاب الله المجيد يقص الكثير من أنباء الرسل ، وأخبار الأمم الماضية ، ويكرر عرض هذه وتلك فى تفصيل وإسهاب تارة ، وإيجاز قليل أو كثير تارة أخرى ، لتثبيت فؤاد النبى ، وموعظة وذكرى المؤمنين . وثمة أيضاً تشابيه التمثيل المنبثة فيه ، لا تكاد تبعد من القصة ولا تجافيها ، ولها من الروعة والطلاوة وبلاغة التأثير ما لها .

ثم إن القصة ميدان رحيب ، يجد فيه الكاتب الملبق مضامير شتى لخياله السرى ، وفكره الثاقب ، ونظره البعيد ، فيتهيأ له فيها ما لا يكاد يتهيأ فى سواها ، من حسن الافتنان ، وروعة التصوير ، والتلطف فى الإقناع ؛ لأنه فى القصة يخلق من خياله عالماً خاصاً . يستجمع فيه من عالم الحقيقة كل ما يقتضيه حبك

القصة ، وتساوق وقائعها : من الرضا والسخط ، والترتيب والشعث ، والسعادة والشقاء، والليل والنهار ، والدمامة والحسن ، والخير والشر ، وكثير غيرها أو مثلها مما تضطرب به الحياة فى عالم الحقيقة الواقعة . وهو حين يزجى الحوادث ، ويصف الملابسات وينطق الأشخاص — ينفث هنا وهناك رسالة القصة ؛ فتتسلل دبيباً إلى مواطن الاقناع ، حتى لقد يقع فى النفس أن هذا الذى يتمثل لها من وقائع القصة ، ويلقى إليها على ألسنة أشخاصها — ليس إلا قطعة من الحياة فى دأب معتاد ، وحال مألوفة ؛ فتتأثر به كتأثرها بالبيئة ، وتطمئن إلى وحيه كما تطمئن إلى العقيدة المستقرة ، أو الرأى الخاص : تهدى إليه النظرة الشخصية ، أو التجربة الذاتية ؛ فتتعصب له ، ولا يسهل أن تتحول عنه .

فهل ترى جمهرة أدبائنا المولعين بالقصة ، يتناولونها من أكرم نواحيها . أو يقصدون بها إلى أنبل غاياتها وأجلبها للخير ؟

دع القصص المدرسية ، وطائفة قليلة من القصص التحليلية الأخرى ، التى وفق بعض الأدباء فى وضعها ، وتحروا بها وجه الحكمة والفضيلة . ثم اقرأ أية قصة فى كتاب أو صحيفة ، ولا تتكلف التقصى والاستقراء فى سبيل الدرس والتهدى إلى صواب الرأى ، فقليل هذه القصص يغنى عن كثيرها ، بل إن بعضها ليدل على جملتها . فماذا ترى ؟ ترى الموضوع ساقطاً مبتذلا ، والعبارة فى أكثر حالاتها سخيفة مستهجنة لا تترفع أحياناً عن العامية الخالصة ، ترى المرأة فى كل قصة صاحبة الحول والطول . أو هى — كما يقولون — قطب الرحى : تدور الوقائع كلها من حولها . فعلا وتدبيراً ، أو وحياً وتأثيراً ، وتجد النهاية التى تنتهى إليها القصة أبداً هى ضعف إرادة المرأة ، وعجزها عن مغالبة عواطفها الجنسية ، حتى ما تكاد تقر على مراودة أو إغراء ، ولا تتأثم فى الخيانة والاستسلام .

صحيح أن المرأة تسهم فى أمور الحياة بنصيب كبير ، وأن القصة فى وضعها الصحيح قطعة من الحياة ، فمثلا تصوير عاطفة الأبوة تصويراً صادقاً يجليها على حقيقتها فى الفطرة المستقيمة — يلاقى من ارتياح القارىء وحسن إقباله كل

ما تلاقيه صورته المرسومة ، تحكيه فى وضع من الأوضاع ، أو على حالة من الحالات . وكلما كانت هذه وتلك أشبه بالحقيقة ، وأجمع لدقائقها ، وأشد تبييناً لسرائرها — كانت أرفع قيمة ، وأوفر حظاً من الفن . فلا تثريب إذاً على الكاتب أن يتناول المرأة فى القصة تصويراً وتحليلا ، بل من محاسن التوفيق أن يفعل أحياناً ، ولكن الذى لا يستساغ منه ولا يغفر له أن يضع المرأة فى غير وضعها ، ويتكلف لها من الأمر ما ليس لها ، وأن يقصر همه فى درسها وتحليل شخصيتها على ناحية واحدة ، يقف عندها ، ولا يكاد يريم .

تلك هى ناحية العبث والمجون كما تكون فى المرأة اللاهية المستهترة ، كأن هذا هو شأن المرأة فى فطرتها ، أو كما يجب أن تكون .

إن من الاسراف فى التغرير والملق أن نلقى فى روع المرأة أنها صاحبة الحل والعقد فى أمور الحياة : لا يبرم أمر ولا ينقض ، إلا ولها به صلة من قريب أو بعيد ؛ فان للمرأة مهمة تصلح لها ، وللرجل أخرى تصلح له ، ومن تعدى الحدود القائمة . وقلب الأوضاع الصحيحة ، أن تنافس المرأة الرجل فى مهمته . وإذا كانت المرأة فى بعض الأمم الغربية قد سابقت الرجل فى مضماره ، ونازعته كثيراً من حقوقه وواجباته ، فامتد سلطانها ، وزاد نفوذها — فهل بلغت المرأة الشرقية ، وبخاصة المسلمة هذا الشأو ؟ وهل من الصدق فى أدب القصة أن ندعى لها هذا الشأن ، وننسب إليها ما ليس فيها ؟

حقاً أن براعة القصة ليست دائماً فى تمثيل الحياة الواقعة تمثيلا مطابقاً ، ولكنها كذلك فى تصوير المثل العليا ، وتخيل الأمانى الشاردة تخيلا يدنى بعيدها ، ويحقق أحلامها فى ذهن الكاتب ، حتى يستطيع أن يتحدث عنها بالغيب ، كما يتحدث عن الحقائق الجارية فى محيط معين ، أو أفق آخر من آفاق الوجود فتتعلق بها الإرادة وتتطاول إليها النفس . وربما استجابت لدواعيها ، وأعدت العدة لطلبها .

فهل ترى المستهترين من كتاب القصة المصرية يريدون بالحديث عن امرأة لاوجود لها فى البيئه الشرقية الكريمة ، أن يسبقوا الحوادث ، ويدفعوا المرأة

الغافلة المؤمنة دفعاً إلى المصير الوخيم ، الذى يخيل لهم فهمهم الخاطىء أنها صائرة إليه ؟ إن كان هذا مايريدون ، فيالها زلة مالها من مقيل ! واى زلة أهول هولا ، وأسوأ عاقبة من إشاعة الفاحشة ، وتحريض الناس أن يحيوا حياتين متناقضتين ؟

وإذا كان للقصة كل ما أسلفنا من قوة التأثير ورواج السوق فكيف يمكن الإغضاء عن القصص الخليع ، وهو فى رأيى ليس أقل عصفا بالأخلاق وجناية على الآداب من التحريض على الفسق ، وعرض الصور المثيرة للغريزة الجنسية؟ وكيف يكون واجبا أن تصان أبصار الجمهور عن رؤية المناظر المنافية للعفاف والتصون ، ثم لا يكون واجباً كذلك أن تصان أبصاره عن قراءة الأدب الخليع وأذهانه عن امتثال حوادث المجان . وتعرف حيل التغرير بالمرأة ، ووسائل النجاة من تبعة سقوطها والجناية عليها ؟

ربما أفهم أن يطيب لبعض الغربيين فى قصصهم هذا المنحى الخليع ، يتجهون إليه ، ويؤثرونه على سواه ، ولكننى لا أستطيع أن أفهم كيف يطيب لجمهرة القصصيين من أدبائنا أن يأخذوا هذا الأخذ المعوج ، الذى ينافى آداب المجتمع الشرقى ، ولا يتفق فى شىء مع الدين الحنيف .

على أنه إذا لم يكن لهم بد من ذكر المرأة فى قصصهم ، ففى نواحيها البريئة الخيرة مندوحة واسعة : هناك الصبر ، والرحمة ، والايثار ، والبر ، والإغراء بالطموح ، وكثير غيرها .

إن أكثر ما أخذناه عن الغربيين متعلقا بالمرأة — غث مرذول ، بل فاسد وبيل ، يجب نبذه والتخلص من آثامه وأوضاره ، أما التشجيع عليه ، والدعوة إلى الاستزادة منه، فضلال وحمق . وليس فيه مع ذلك فخر لصاحبه ، ولاهو يبيح له ادعاء المقدرة على القيادة والتوجيه . إذا صح أن فى الخنى موضع فخر ، أو مجالا لانتحال نوع من المقدرة؛ فان النفس الضعيفة بطبعها سهلة الانخداع . يجتذبها الجديد بجدته ، فتنزع إليه ، وقد تهيم به من غير تحريض ، وإنما الفضل كل الفضل ، والمقدرة ليس أجل منها ، أن يستطيع امرؤ ببيانه أن يبث فى النفس

الضعيفة قوة ، وينفخ فيها من روحه مناعة تقوى بها على مغالبة نوازى الاثم ، والسلامة من الموبقات ، ذلك مقام صعب لا يرقى إليه إلا ذو حظ عظيم من العبقرية والنبوغ .

ثم ما هذه اللغة التى يكتبون بها قصصهم ؟ وكيف يسيغون أن تكون هكذا واهنة مشكلة الألوان : تتخاذل ركة وسخفا ، وتتجاذبها العامية والعجمة ، فتذهب بينهما سقطا زريا ، أفترى هذا العجز عن اصطناع اللغة الفصيحة التى تليق وحدها بالأدب القيم الرشيق ؟ أم هو التجديد الذى يتمشدقون باسمه ، ولا نرى له أثارة فى أعمالهم إلا هذه الثورة الجائحة حتى على الأوضاع الصحيحة ، والمحارم المصونة ؟ .

ليكن السبب ما يكون ، فالذى لاريب فيه على أى حال أن هذا الضرب من القصص ليس من الأدب المنتخل فى شىء ، فقد فاته شرف اللفظ ، وسلامة العبارة ، وحرم نبل الموضوع وسمو الغاية .

ألا ليتق الله هؤلاء الدعاة الاباحيون ، أو ليرفقوا بأمتهم ولغتهم ، فقد غلب الوهن على أخلاق الشباب ، وشاع فيهم النزوع إلى التحلل من كل قيد ، وتكاد العجمة تهم بالفصيحة ، وتنازعها شرف المنزلة وجلالة الشان ، فإلا يكونوا عونا للفضيلة والبيان الصحيح ، فلا أقل من أن يكفوا عن منازلتهما باسم الأدب عامدين أو غير عامدين .

على النجدى ناصف

بين القديم والحديث

الدلالة النفسية

للأساليب والاتجاهات الجديدة

للأستاذ سيد قطب

إن الخلاف فى حقيقته ليس خلافا لغويا أو أدبيا كما يحسب الكثيرون ، وإنما هو اختلاف عقليتين ، تكادان لاتتفاهمان على أساس فى النظرة إلى اللغة والتعبير ، بل في النظر إلى الحياة نفسها جملتها وتفصيلها .

« فالمدرسة القديمة ضيقة الإحساس ، بدائية الشعور ، قليلة الذخيرة النفسية ، والتجارب الوجدانية ، بمقدار انفساح الإحساس فى المدرسة الحديثة ، ووفرة الذخيرة النفسية لديها ، والتجارب الوجدانية .

« ولهذا تضيق الأولى بالأخيرة ، لأنها تطالبها بألوان من الاحساس لا عهد لها بها ، بعد ما ألفت ألا تتسع إلا للون واحد من ألوان العواطف والخواطر ، تعرف له صورة واحدة ذات معالم وحدود ، فتحسب أن كل ما فى هذه الأحاسيس الجديدة إنما هو اختلاف فى التعبير ، والواقع أنه اختلاف فى الحالات النفسية التى استدعت هذا التعبير » .

سيد قطب

٭٭٭

جاءت هذه الفقرات فى كلمتي الأولى بالعدد الماضي من « صحيفة دار العلوم » تحت عنوان « الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية » .

وقد كان بحثى إذ ذاك مقصوراً على ما تضمنه العنوان ، ولكنى أردت فقط أن أشير فيه إلى أن هناك خلافا أساسيا بين المدرستين ، لايقف عند حدود الألفاظ والتعبيرات ، وأن هذه إنما اختلفت تبعا لذلك .

وأحسبنى أفلحت فى كلمتى الأولى ، فى بيان هذا المعنى الأخير ، وأصبح مفهوما أن الأسلوب أو طريقة الأداء إنما هى اتجاه عقلي ونفسى قبل أن يبرز ألفاظا وتراكيب ، وأن التجديد متى شمل « المعانى » والاتجاه الفكرى ، فلابد

أن يشمل « الأسلوب » أو طريقة الأداء لأنه لا انفكاك بينهما .

ولقد قرأت أخيراً مقالا فى « البلاغ » بإمضاء « عجوز » يتهكم فيه بالمجددين ويعجب كيف يتناول التجديد التراكيب والأساليب ، إذا صح أنه يتناول المعانى والأفكار، فعجبت أن تكون هذه مشكلة تستحق البحث ، وتدعو للجدل !

وليس منشأ مثل هذا الفهم إلا إغفال الدراسات النفسية ، عند البحث فى اللغة أو الأدب ، ولو عرفنا فى بساطة ساذجة « أن التعبير » لا يكون إلا عن « انفعال » ، وأن الانفعال خاضع للبحوث النفسية ، كما قلت فى كلمتى السابقة ، لعرفنا أن الاتجاه الذهنى هو الذى يحدد الأسلوب . وأن الحكم على صحة أسلوب ما يستدعى البحث فى الحالة النفسية التى يصورها ، وأعنى بالصحة صدق تصويره لهذه الحالة . وإلا فما يختلف اثنان فى وجوب الصحة اللغوية فى القديم والحديث على السواء .

* * *

ولقد فرغت في البحث الماضى ، من عرض بعض التعبيرات التى تكثر المدرسة الحديثة من ذكرها ، وشرحت الحالات النفسية التى تستدعيها ، وما عنيت بذلك أن أستقصى تلك التعبيرات ، وهذه الحالات ، إنما أردت أن أفتح الأعين على أفق جديد من آفاق النقد والنظر إلى الآثار الأدبية المحدثة ، فى رحابة ودقة وإمعان ، وأن أقرن البحث النفسى إلى البحث الأدبى واللغوى ؛ ليعلم أنهما متلازمان فى النقد الصحيح ، وأن مهمة الناقد ليست من السهولة بحيث يستطيعها كل من درس دراسة أدبية بحتة ، ما لم يكن له من البصر الطبيعي بالحالات النفسية ، ومن سعة الإدراك للوجدانات المختلفة ، ما يضمه إلى هذه الدراسة ، ويستخدمه فى النقد وإصدار الأحكام .

وأحسب أن هذه مسألة لا يستكثر فيها الحديث ولا يستطال ، فأنا أزعم أنها جديدة على النقد الأدبى فى اللغة العربية ، وأنها إذا كانت قد نالت بعض الالتفات فى بعض الأحيان ، عند بعض النقاد القدماء والمحدثين فى هذه اللغة ، فإنها لم تأخذ بعد شكل النظريات المسلم بها ، والقاعدة التى يقاس عليها .

فإذا عدت إليها اليوم فى مقدمة بحثى ، بعد ما قررتها فى البحث الأول ، فإنما ذلك بسبب ما قدمت .

ooo

كذلك أود أن أعود لمسألة اختلاف الأساليب ، تبعاً لاختلاف العقليات ، بله اختلاف الموضوعات (فهذا مسلم به تقريباً) ، لأقرر أنه ليس من اللازم أن تجرى أساليبنا نحن فى مصر ، وفى هذا العصر ، على الأساليب العربية المعروفة ، فى بطن الجزيرة ، والبلاد العربية الأصيلة والدخيلة ، وهذا كله مع احتفاظنا بالنطق بهذه اللغة ، ومحافظتنا على صحة إعرابها وسلامة ألفاظها .

وأنه لن يستساغ منا اليوم أن نجرى فى تعبيرنا ، أى فى ترتيب الألفاظ ، وتنسيق التراكيب ، على نحو ما كان متبعاً فى كثير من عصور هذه اللغة ، ولو فعلنا لبدا أسلوبنا مغاير الحياتنا وطريقة تفكيرنا ، واتضحت الهوة بين عقلنا ونطقنا .

وليس فى نيتى أن أفاضل بين الأساليب ، لأقرر أيها أبلغ من الوجهة الأدبية البحتة ، فما أعرف أسلوباً أبلغ إلا مقيسا إلى الحالة النفسية التى يعبر عنها ، ومقدار إبانته عن هذه الحالة فى صورة جميلة ، متناسقة مع العقلية العامة ، التى أنشأت هذه الحالة .

فقد يكون بعض الكتاب ، وبعض الشعراء فى العصر العباسى مثلا ، اجود منا نحن اليوم أسلوباً ، ولكننى — كأديب — لا أرتضى كثيراً من أساليبهم هذه ، لا لأننى قد آتى أجود منها ، بل لأنها لا تناسب طريقتى أنا الخاصة فى الأداء ، وطريقة العصر الذى أعيش فيه ، والأمة التى أنجبتنى .

وإنى لأكون بليغاً أكثر البلاغة ، حين أعبر بطريقتى ، وطريقة عصرى وأمتى ، ولو لم أصل إلى درجة البلاغة فى العصر العباسى .

وهذا يعادل بالضبط ، أن ألبس كساء فصل على قدى من القطن ، فيكون أجمل وأنسب من كساء آخر فصل على قد غيرى ، من أجود النسيج .

ولست أعنى أن كل أسلوب قديم لا يناسبنا منه شىء ، ولكنى أبغى فقط أن

أفر قبول التحوير والتعديل والابتداع فى هذه الأساليب ، حتى تصبح مناسبة لعصرنا الجديد .

***

وبعد فخليق بكل ما مر حتى هذه السطور ، أن يكون ملحقا بالبحث الماضى، فهو بعض ما يقال عن الألفاظ وعن التعبيرات ، أو عن الأسلوب ، بصفة عامة .

وقد بقى الحديث عن الاختلاف النفسى والعقلى بين المدرستين ، أو اختلاف نظرتهما للحياة والحالات النفسية فيها .

ويحسن أن أشير هنا إلى أن المعنىّ بالمدرسة القديمة ليس الأدب القديم ، وكذلك ليس المعنّى بالمدرسة الحديثة هو الأدب الحديث . أعنى أنه ليس لكلتا المدرستين حدود زمنية ، فبعض الشعراء الذين عاشوا في العصر العباسى كأبى نواس وابن الرومى والمتنبى نعتبرهم من المدرسة الجديدة ، وبعض الشعراء الذين يعيشون بين ظهرانينا الآن نعتبرهم من المدرسة القديمة . والفروق بينهما فروق فى الإحساس والطريقة .

المدرسة القديمة فقيرة فى الحالات النفسية ، تقرب كثيرا من دائرة البداوة والطفولة ، والأحاسيس عندها ساذجة أولية ، لها ألوان قليلة محدودة ، وشرح مثل واحد قد يعطى صورة لغيره .

الحب مثلا عندها — وهو إحدى العواطف الكبرى فى الحياة — حالة واحدة ، أو حالات شبيهة بالحالة الواحدة ، فهو شوق ولهفة ، وجوى وشكوى ثم تدلل وأسى ، ورقة وحنين .

أو كما يقول أحد الأساتذة عن المتنبى شارحا أثر الحب :

« فلست ترى فى أضعاف نسيبه آثار نفس ذللها الهوى ، وأسقمها الحب ، فلا كبد حرى، ولا قلب مقروح »

هكذا . مادام هناك « حب » فلا بد أن تكون « ذلة وسقم ، وكبد حرى ، وقلب مقروح » .

وهذه هى الصورة التقليدية للحب ، عند النقاد العرب ، ولو أن الكثيرين من الناطقين بالعربية فى أيام النهضة استطاعوا أن يتخلصوا من هذا الضيق النفسى ، وأن يفهموا الحب فهما أوسع إلى حد ما .

فلا يجوز أن يكون فى الحب قناعة واستكفاء مثلا كما يشبع النهم من أجود الثمار ويستكفى فى لحظة ، وإن كان هذا لا يمنعه من تجدد النهم . ولا يجوز أن يكون هناك سلو ولا صدود من المحب لسبب من الأسباب ، ولا يجوز أن تكون هناك عزة و كبرياء ، ثم لا يجوز أن يكون هناك عنف وقسوة وصخب وتدمير !!!

وبطبيعة الحال لا يمكن أن تكون هناك لهفة وعنف مثلا ، ولا حب وبغض يتمشيان جنباً إلى جنب فى نفس واحدة ! ولا حالتان مزدوجتان أو عدة حالات بحال من الأحوال ؟

ولم هذا .والحب عاطفة إنسانية ، تكون هادئة و ثائرة ، رقيقة وعنيفة ، مقبلة ومدبرة . فائضة بالحيوية ومنحسرة الفيض منطوية على نفسها ، متفتحة ومغلقة ، صاعدة وهابطة . محلقة فى سماء الخيال ومكبة فى أرض الواقع ، ملائكية النفحات ، وشيطانية النزوات ... الخ ؟ .

وتكون هكذا فى النفوس المختلفة ، وفى النفس الواحدة فى الحالات المتباينة ، وبإزاء شخصيات متغايرة ، فى مواقف لا عداد لها .

والحب بعد هذا وذلك . فيض فى نفوس قوية — على نسبة ما من القوة — فيض زائد عن الحاجة ؛ طاقة فائقة عن الضرورة ، تبغي لها متصرفا ومنبثقا ، فكيف يلازمها الضعف ، ويلازمها الغم ، ، والكبد الحرى ، والقلب المقروح ، ؟

وأين تذهب حالات الرضاء والاكتفاء ، وحالات النهم والالتهام ، وحالات التطلع والاستطلاع ، وحالات التصوف والاستعلاء ، وحالات السخط والغضب ، وحالات العنف والانتقام ... ، وحالات ، وحالات ... مما لا عد له ولا حصر من الحالات النفسية عند المحبين ، بل عند المحب الواحد مع المحبوبات ، بل مع المحبوبة الواحدة فى شتى الانفعالات ؟ .

كل تعبير جميل عن حالة صادقة من هذه الحالات وسواها مما لا يستطاع حصره ، فهو أدب رفيع ، وشعر فنى ، وتراث أدبى ثمين .

وعلى الذين يعيبون هذه الألوان متفرقة أو مجتمعة ، أن يستشعروا ضيق نفوسهم عن استيعابها ، وحرج قلوبهم عن التفتح لها ، وليحاولوا أن يوسعوا حياتهم ، وأن يجعلوا من وجداناتهم ، أذنا موسيقية رفيعة ، تستلذ نغمات « الأوركستر » وتطرب « للهرمونى » والانسجام فى الموسيقى ، قبل أن تطرب للنغمة الواحدة منفردة ، وعلى لون خاص لا تتعداه .

* * *

وإنى لأضع أمام القارىء نموذجا رفيعاً للون من ألوان الغزل ، يمثل رحابة النفس الإنسانية ، وتفتحها لتلقى أطياف الحب المختلفة فى لحظة واحدة ، وهى مع ذلك قطعة واحدة ، تعبر عن حالة نفسية واحدة ، (فالحالات المختلفة يبحث عنها فى ديوان كامل) ومع هذا يبدو فيها التفتح والفهم ، والرحابة والشمول .

يومنـــا(١)

يومنا عاد فهـــل تعرفه ؟ شد مارعرعه العام السريع
شـــد ما غذته فى نشأته قبلات تشبع الحب الرضيع
هى تُنمى حين تغذو طفلها وهى تنمى طفلها حين تجيع

* * *

ســـنة كانت ربيعا كلها بين روض يتغنى ويضوع
زهرٌ ناهيك من زهر فإن أنبتت شوكا يكن شوك ربيع !

(١) للأستاذ العقاد من ديوان « عابر سبيل » .

حبذا الشوك من الحب ولا حبذا من غيره العشب المربع !

***

عضّ عينيك قليلا واستعد خطوات العام فى الأفق الوسيع
كم ترى من خفقة غنت بها ســـاعة العمر التى بين الضلوع
كم ترى من قبـــلة رنت بها تلكم الساعة ؟ قل لو تستطيع
كم ترى من نشوة حامت بنا حول عليين والعرش الرفيع
إن يطل شرح المعانى فاختصر كل مافرقت فى معنى جميع
هو «حب» فإذا فرقتـــه فهو ماراع قـــديماً ويروع
هو حب واحـــد لكنه شائع كالنور من حيث يشيع
لم يكرر قط فى ترداده كل ترداد له خلق بديع
فإذا عشت له عشت به فى بواكير من العيش اليفيع

***

أين يمضى بك يايوم السرى وعنان الحب يايوم مطيع
طفت ماطفت وساقتك لنـا صحبة إن ضـاع شىء لاتضيع
وعلى العهـد مدى العمر هنا نحن يايوم . ومأواك منيع
أبداً نلقـــاك والحب معا هاهنـا بين مضى ورجوع

هذا تعبير عن حالة واحدة فى لون واحد ، من حالات الحب ذى الألوان المتعددة ، فأين فى ماضى الأدب العربى كله تجد مثل هذا التعبير ، أعنى مثل هذا الإحساس الذى استدعى التعبير ؟

وهذا مظهر من مظاهر التجديد ، الذى تدعو إليه المدرسة الحديثة ، شاعرة بانفساح الحياة ، ورحابة الإحساس ، ووفرة الشعور ، وهى بهذا تعمق حياتها ، وتضاعف الشعور بها ، وتجعل من كل ذرة فيها مادة تأمل واسترواح .

ولعلك واجد من أدباء المدرسة القديمة من يفغر فاه عجبا من أن يكون للحب شوك ، وأن يكون هذا الشوك مطلوبا كالحب نفسه ، يقال له « حبذا » ! . فالحب فى عرفهم يجب أن يكون متطلعاً للصفو والرقة والليونة ، ولا يجوز له أن يرتضى الشوك من الحب فضلا عن طلبه . فإن ارتضاه فعلى سبيل التضحية والرغم ، لا على سبيل الطلب والاستحسان .

ولكن الشاعر هنا حى ، فائض بالحيوية ، متتبع لمظاهر الحيوية فى الحب والربيع ، فالشوك عنده مطلوب كالزهر سواء بسواء ، لأن كليهما دليل على دفعة الحياة ، وفيض النماء ، ولأن الشوك أصيل أصالة الوردة نفسها !

ولعل هذه الالتفاتة وحدها كافية لبيان ما بين المدرستين من فوارق فى فسحة الشعور ، واتساع الآفاق ، وفى القصيدة غيرها وغيرها للمتأمل بعين الناقد البصير ، وإحساس الحى الموكل بمظاهر الحياة .

وفى الحديث متسع ، ولنا عودة بالشرح والتفصيل ؟

حلوان   سيد قطب

حظ أبى تمام من بيت الخلافة

– ١ –

للأستاذ عبد الحميد راضى

أحدثكم عن حظ أبى تمـام من بيت الخلافة ، ويحدثكم أبو تمام عن حظه من بيت الخلافة كذلك .

وحـديثى تاريخ يستمد من الأدب العربى قوة ؛ وحديثه أدب ينطوى على أوضح صفحات التاريخ ؛ وفى التاريخ والأدب مقنع ورضا لمن ينشد من وراء البحث الاقتناع والرضا .

وأبو تمام هذا علم من أعلام الأدب ؛ طالع الناس بشعره ، وطالع النـاس شعره ؛ فى أيام المأمون والمعتصم والواثق — فرأوا فيه جدة بل ثورة على ما ألفوا ؛ وكلفا بألوان الجمال ، التى سميت فيما بعد بالبديع ، وقد عهدوها نثارا غير مروم فيما عرفوا .

وكان حظه لهذا من الرضا والسخط حظ كل جديد ، يراه المحافظون من جانب ، ويراه الأحرار من جانب ؛ فيبدو لقوم مليئاً بالمعايب خلوا من المحامد ، فيضيقون به وينقمونه ؛ ويتراءى لآخرين مظهرا للفكر الحى ، وصفحة من الأدب الخالد ، فيضفون عليه ثوب الرضا ويؤثرونه .

وهنا تتباين الآراء ، وتتجلى الفرقة فى الحكم ، تبعاً لاختلاف المقاييس وتباين وجهات النظر .

والصراع الفكرى قديما وحديثا إذا اشتد — لا يضير المتحدث عنه ، ولـكنه ينفعه ؛ ولا يدنيه من مهاوى الخمول ، وإنما إلى منابه الذكر يرفعه .

وهذا العهد قد شهد من الاختلاف فى الرأى ، واللدد فى الجدل حول هذا الشاعر — ما لم يشهده قبله عهد فى شاعر عربى .

والنقاد والأدباء تيسر لهم من وسائل النقاش ، وضوابط المنطق - ما لم يتح قبل لغيرهم فى عهد عربى .

وليس من العسير بعد ، أن ندرك المدى الذى بلغه النقدة فى تناول هذا الشاعر ، بتعقب عثراته أو نشر حسناته ؛ وأن ندرك أن شعره كان مادة خصبة لمساجلات عنيفة ، لم تبق قصرا على ندوات العلم وحلقات الدراسة ؛ وإنما كانت أحاديث يتناقلها الرواة ويردد صداها الآفاق ، وأن ندرك كذلك المكانة التى تبوأها فى دولتى الشعر والجاه ، وقد كانت بين الشعراء من السمو بالمحل الذى يقصر دونه جهد الطامحين ، وكانت بين عظماء الدولة وقوادها وولاتها من القرب والنفوذ بالمنزلة التى تعز على النابغين المجدودين .

* * *

ذلك كان حظ أبى تمام ، وتلك كانت مكانته ، فى غير بيت الخلافة ؛ وقد كان خليقاً أن ينال بمواهبه لدى الخلفاء وأبناء الخلفاء ما يوائم هذا الحظ وتلك المكانة ؛ ولكن تعاقب الأيام قد جعله يدرك مالم يدخل فى حساب تقديره وعنت الزمان قد أراه مالم يستطع له دفعاً بقوة حيلته وأحكام تدبيره .

وماذا عسى أن يفعل الشاعر ، إذا كان الزمن قد طوى بظهوره أحفل صفحة من صفحات مجد الشعراء ، وبدأ يسجل فى صفحة جديدة تباشير انصراف الخلفاء عن الشعر ، ورغبة بيت الخلافة عن قائليه .

ماذا عسى أن يفعل إذا كان سوء الطالع يأبى عليه حظ الشعراء السابقين ، ولا يسمه بالحرمان فحسب ، بل يجعله مبدءا لتاريخ المحرومين :

— ١ —

تحول هذا الشاعر العبقرى بآماله عن مصر والشام إلى الخليفة المامون ؛ نادماً على يوم قضاه بعيداً عن رحابه ، راجياً أن ينال لديه مالم ينل من ولاته وكتاب خراجه ، مرسلا شعره بما يساور نفسه من تقصير ورجاء قائلا :

خاب امرؤ نحس الزمان لسعيه   فاقام عنك وأنت سعد الأسعد

ذاهباً به الخيال فى المامون وكرمه مذاهب يصورها لنا قوله فيه :

ما زال يمتحن العلا ويروضها   حتى اتقته بكيمياء السودد
فكانما ظفرت يداه بالمنى   أسرا إذا ظفرت يداه بمجتد

ولكن هذا لم يحقق له أملا ، ولم ينله رجاء ؛ فقد وجد أبواب المامون أمامه موصدة ، ووجد المامون عنه فى شغل .

وقد يكون العلم والثقافات ، وقد تكون المناظرات الدينية وإغرام الخليفة بها ، وقد تكون الثورات والحروب ، وبخاصة ثورات مصر ، وحروب بابك والروم ، قد يكون سبب من هذه الأسباب مرد ما جنى الشاعر من إخفاق ، وقد تكون هذه الأسباب مجتمعة ، وقد تكون أسباب أخرى غير ما ذكرنا ، فالشىء الذى لا شك فيه أنه لم ينل حظوة لدى المامون ، بل لم ينل منه قرباً .

(ب)

هذا أمره فى عهد المامون . وأما أمره فى عهد المعتصم فقد كان أبعث على العجب والرثاء معا ؛ لا لأن الرجل لم ينل قرباً ولم يظفر بعطاء . ولكن لأنه بالجهد الجاهد ، والشفعاء المقربين ، انتهى إلى قرب أشبه بالبعد ، وعطاء أقرب إلى الحرمان ، ومنزلة إن ورثت شيئا فانما تورث الغم وتحطيم الأمل :

لم يتوان أبو تمام فى التماس الزلفى لدى المعتصم والقرب منه ، وما ظنك بمن كان من شفعائه الوزير ابن الزيات ، وقاضى المظالم أحمد بن أبى دؤاد ؛ ولم يقصر كذلك فى مدحه وربط آماله به . وحسبه أنه القائل فيه :

إلى قطب الدنيا الذى لو بفضله   مدحت بنى الدنيا كفتهم فضائله

***

هو البحر، من أى النواحى أتيته   فلجته المعروف ، والجود ساحله
تعود بسط الكف ، حتى لو انه   ثناها لقبض لم تطعـــه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه   لجـــاد بها ، فليتق الله ســـائله

***

رجاؤك للباغى الغنى عاجل الغنى وأول يوم من لقائك آجله

وقد أقام على هذا المدح ، وذلك الالتماس للزلفى أعواماً خمسة من حكم المعتصم بل تزيد أشهراً ، إلى أن سنحت الفرصة بفتح عمُّورِيَّة ، فتقدم مهنئا بهذا الفتح المبين ، منشداً إحدى قصائده الخالدة . وظن أنه بهذا قدنال غايته وأرضى الخليفة وظفر بالأمنية العظمى التى صبر وصابر فى سبيلها ؛ ولكنه كان فى هذا التقدير مسرفا مخدوعا ، فان هذه الفرصة التى انتهزها لم تزده من الخليفة إلا بعداً ، ولم تزد الخليفة فيه إلا زهداً . ولم يك هذا لذنب جناه وتقصير أتاه ، ولكن لأنه أجش الصوت سيء الأداء .

على أن أبا تمام لم ييئس لهذا ولم يبتئس ، فأخص خلاله اللباقة وسعة الحيلة ، وسرعان ما وجد الحل طيعاً ميسورا ؛ فاذا كانت الطباع لا تبدل ، والأصوات لا تعار ، فان الاستعانة بمن ينشد الشعر فى الطاقة ، وفى هذا تخلص من المأزق وبلاغ .

فاستعان بغلامه صالح ، وقد كان حسن الصوت جميل الإنشاد ، ثم حظى بالمثول ، وحظى غلامه بالإنشاد ، ولكن شعره ينبئنا بانه لم يتقدم خطوة ولم ينل حظوة .

ينبئنا بان اليأس قد غمره ؛ فأفنى بشاشته ، وكاد يفنى أمله ؛ وأيقظه من حلم صحبه طويلا ، فآمن بأن الخليفة راغب عن الأدب ورعايته ، وأن سعيه فى سبيل الحظوة لديه جهد ضائع وطب غير ناجع . فاتجه بما بقى يتردد فى نفسه من رجاء ، إلى أبناء الخليفة يلتمس القرب والعطاء ؛ فاستطاع أن ينشد شعره أمام أحمد بن المعتصم ، وأن ينال لوناً من ألوان الحظوة لديه ، ولكن هذا لم يحقق أمانيه ، فلم يك أحمد ولى عهد ، ولم يكن من كبر السن بحيث يستطيع أن يفهم الشعر ويدر المغانم .

— ح —

هذه صورة لما انتهى إليه أمره فى عهد المعتصم ، فلما ولى الواثق تقدم إليه مهنئاً معزياً بالقصيدة التى منها :

لله أى حياة انبعثت لنا يوم الخميس وبعد أى حمام

٭٭٭

ما إن رأى الأقوام شمساً قبلها أفلت فلم تعقبهم بظلام

وتجدد رجاؤه وعظم أمله ، فأسرف فى مدح الواثق ، بل غلا غلواً كبيراً ؛ حيث يقول فى مقطعته :

هارون يا خير من يرجّى لم يطع الله من عصاكا
لو كان بعد النبى وحى إلى ولى لكنت ذاكا

واستعان بالشفعاء عليه ليبلغ من الحظوة فى هذا العهد ما لم يبلغه فى العهدين السابقين ، ولكن عثار الجد كان لازال يظل منزلته من الخلفاء ، فلم يبلغ بمدائحه وشفعائه أكثر مما نال قبل ، وانصرف عنه الخليفة انصرافاً كان من مظاهره أخذ ابن أبى دؤاد بالاسراف فى عطائه :

حدثنا التاريخ أن الواثق قال لأحمد ابن أبى دؤاد يوماً : ياأبا عبدالله ، رفعت إلى رقعة فيها كذب كثير . قال : ليس بعجيب أن أحسد على منزلتى من أمير المؤمنين فيكذب على . قال الخليفة : زعموا أنك أعطيت شاعراً ألف دينار (وهو يعنى بكلمة شاعر أبا تمام) . قال ابن أبى دؤاد : ما كان ذاك ولكنى أعطيته دونها ، رعاية كما قال للمعتصم غفر الله له ، فى أمير المؤمنين أعزه الله :

فاشدد بها دون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار

فابتسم الخليفة ، ونجا ابن أبى دؤاد من المؤاخذة وهذا الخبر واضح الدلالة على أن الواثق كان لا يرتاح لاجزال العطاء للشعراء ، وأنه كان يعد الأخبار التى تصل إليه عن هذا من المزاعم التى لا تصدق ، أو من الذنوب التى لا تغفر .

***

فهذه مكانته من الخلفاء ، وهى مكانة لا أستطيع أن أرتقى بها إلى ما يسمى حظوة ، فالحظوة تقوم على الرغبة والايثار ، وتنأى عن الشفاعة والشفعاء . ويصحبها القرب ورفع الحجب .

وقد يرتاب فى حكمي هذا كثيرون من الأدباء ومؤرخى الأدب ، وليس بعجيب أن يرتابوا ، بل العجيب ألا يكون هذا الارتياب بالغاً من القوة والعنف حد النفى والانكار .

وذلك لأنهم يقرءون فى أحدث الكتب ظهوراً لأعلام الأدب ومؤرخيه: أنه « اتصل بالخليفة المعتصم ومدحه وحظى عنده » . ويقرءون كذلك لكبار المستشرقين ، فى دائرة المعارف الاسلامية : أنه « كان أكثر توفيقاً فى بلاط المعتصم » ، وأنه « كافأه على قصائده التى مدحه بها كما اصطحبه فى حملته على عمورية عام ٢٢٣ هـ » ، وأنه « نال أيضاً رضاء أحمد بن المعتصم وابنه وخلفه الواثق » .

وفى هذا قوة تدفع القارىء إلى إنكار ماقلت ، وإلى الإصرار على هذا الإنكار . ففيه من الوضوح ما يبعث على الاقتناع بما كان للشاعر من حظوة بلغت حد الاصطحاب فى حملة عمورية .

وإنى أمام هذا الاقتناع . وبين هذا الإجماع — مضطر إلى أن أحتكم إلى أبى تمام نفسه ، فكلامه مقطع للخصومات ، وفيصل لا ترتقى إليه الشبهات . والذى يشبع فى نفسى الغبطة أنه لم يقصر فى تناول هذه الحظوة فى شعره ونثره ، ولم يعطنا فكرة غامضة وعبارة ملتوية ، بل كان صريحاً فى تناولها ، جريئاً فى الحكم على الخلفاء بسببها :

تحدث أبو تمام يوماً فقال : امتدحت المعتصم بسر من رأى بعد فتح عمورية ، فذكرنى ابن أبى دؤاد له ، فقال له : أليس الذى أنشدنا بالمَصِيصَة الأجش الصوت ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن معه راوية حسن الانشاد ، فأذن لى ، فأنشده راويتى مدحى له .

فهذا حديث لأبى تمام يدلنا على كثير :

١ — يدلنا على أن أبا تمام مدح المعتصم، فزهد فيه ونقمه لجُشة فى صوته ، وأن أبا تمام فطن لهذا أو فطن له غيره فأفضى به إليه .

٢ — ويدلنا كذلك على أنه ذهب بعد إلى سر من رأى مصطحباً معه من يحسن إنشاد شعره أمام الخليفة ، وأن ابن أبى دؤاد بعد أن علم ما أعد من وسائل النجح ـ التمس الاذن له ، فأبدى الخليفة رغبته فى عدم سماعه قائلا :

أليس الذى أنشدنا بالمصيصة الأجش الصوت ؟

فقال ابن أبى دؤاد . يا أمير المؤمنين ، إن معه راوية حسن الانشاد ، فائذن له . وهذه حقائق ناطقة لا أثر للبس فيها ، دالة أوضح دلالة على أنه لم يكن أثيراً ولا حظياً . وإنما كان الأجش الصوت المرغوب عن سماعه .

ويزيد هذا الخبر قوة فى الدلالة على ما نريد أنه كان بعد فتح عمورية ، أى بعد تولى المعتصم بأكثر من خمس سنين . ومدة المعتصم فى الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام .

وأبو تمام يقصد إلى هذه الحادثة وإلى أمثالها دون شك حين يمدح ابن أبى دؤاد بقوله :

لما انتضيتك للخطوب كفيتها	والسيف لا يكفيك حتى ينتضى
ما زلت أرقب تحت أفياء المنى	يوماً بوجه مثل وجهك أبيضا
كم محضر لك مرتضى لم تدخر	محمودة عند الامام المرتضى
لولاك عز لقاؤه فيما بقى	أضعاف ما قد عزنى فيما مضى

وفى البيت الأخير أقوى برهان على أنه كان بالمنزلة التى لا يحسد عليها ، وأنه كان يعز عليه اللقاء . فما بالك بالاصطحاب فى رحلة طويلة كحملة عمورية . واقرأ البيت الثالث فهو يدل على أن ابن أبى دؤاد كان لا يني فى كل مناسبة عن التنويه به ، ولا يفتر عن محاولة إدنائه من الخليفة ، وغمره بالعطايا . ولكنه بقى إلى مابعد فتح عمورية الأجش الصوت ، المرغوب عن سماعه .

وما أدراك ما ابن أبى دؤاد ؟ ابن أبى دؤاد هو مستشار المعتصم ، وقاضى المظالم فى عهده ، وهو الرجل الذى أوصى المأمون أخاه المعتصم فى كتاب وصيته بمشاورته وملازمته إذ قال : « وأبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد لا يفارقك ؛ أشركه فى المشورة وكل أمرك فانه موضع لذلك منك . »

فصاحب هذه المنزلة هو الذى أتاح لأبى تمام أن يظفر بما ظفر به من لقاء وعطاء ، ولكنه لم ينجح فى إنالته الحظوة والقرب من الخليفة .

وقد شغل هذا الأمر الشاعر وورثه اليأس ، وجرأه على أن يهجم على مكانة الخلافة ويحكم بانصراف الخليفة عن تشجيع الأدب ، وأن يطلب إلى الوزير ابن الزيات أن يعز الأدب بحمايته وحمل رايته .

انظر إليه حين يمدح ابن الزيات فيقول :

إن الخليفة قد عزت بدولته دعائم الملك فليعزز بك الأدب

والباحث فى موضوعنا لا يتطلب بعد هذا دليلا ، ولكن الشاعر الذى أصيب فى آماله لا يكف عن اللهج بما يشف عن ياسه وأمله ، استمع إليه وهو يخاطب أحمد بن الخليفة المعتصم حين استطاع أن يتصل به ، ويحظى بقربه منه، وإنشاده شعره بنفسه . دون وسيط من المنشدين :

هدأت على تاميل أحمد همتى وأطاف تقليدى به وقياسى
غلب السرور على همومى بالذى أظهرت من برى ومن إيناسى
عدل المشيب على الشباب ولم يكن من كبرة لكنه من ياسى

فهذا شعر باك يصور مدى يأسه ومدى أنسه بهذا اللقاء ، وهو فى سبيل هذا التصوير يرى أن شيبه ليس دليل كبر السن ، ولكنه من مظاهر اليأس . فهدوء همته على تاميل أحمد ابن الخليفة فيه كل معانى القنوط من حظوة الخليفة .

* * *

ولعلنى بهذا قد استطعت أو لعل ابا تمام قد استطاع أن يقنع القارىء بانه لم ينل حظوة ، ولم يكن أثيراً لدى خليفة من الخلفاء .

وفى هذا ما نستانس به ، بل ما يشجعنا على أن نقول مطمئنين إلى مانقول :

١ — إن المامون كان أول الخلفاء العباسيين الذى شغلوا أو انصرفوا عن الشعر ورعاية الأدب .

٢ — وأن الوزراء والولاة والقواد قد حملوا هذا العبء قبل أن ينتصف العصر العصر العباسى الأول الذى نسمه بالازدهار وبلوغ الأدب أقصى حدود الكمال فيه .

عبد الحميد راضى

وُدٌّ زَائِفٌ

للأستاذ عبد الخالق المسيرى

لسان بلا قلب يُداجى وينطقُ ... وهل نافِعى قول جميل منَمقُ ؟
أفى الود خير وهو بالغش زائف ... إذا لم يكن قلب هنا لك يخفق ؟
لقد هرم الود الذى كان بيننا ... فلم يبق فيه بعد ما شاب رونق
وقد كان كالروض البديع نسيمُه ... بليل وفيه العودُ فينانُ مورق
إذا جئتَه والصبحُ قد ضاحك الدجى ... وَطَلّ الندى فوق الرُّبا يترقرق
وأرخت عليه الشمس وشى ردائها ... وقد كاد منها خشية الهجر يَفْرَق
رأيت به ظلا من الأيك سابغا ... ونورَ الأقاحى طيبَ الريح يعبق
فأنحى عليه الدهر ميْلا يبغيه ... فصَوَّحَ بعد اليَنْعِ والدهر أخرق
فأصبح ذكراً بعد أن كان ماثلاً ... وكل جديد سوف يبلَى ويَخْلقُ
لقد كان مَغْدانا وكان مَراحَنا ... نُبا كرهُ والجنبُ بالجنب مُلصَق
وكان لنا من قبل مأوى يؤمّه ... كلانا ويحدونا إليه التشوق
فدبَّ دبيبُ الخلف، لا عن ملالة ... ولكنَّ غايات النفوس تفرق
وما قيمة الود الذى تستبيحهُ ... مآرب إن لم تُقض فهو ممزق ؟
سلام عليه مات فى ميعة الصبا ... وقد كان بالإخلاص والحب يألق
ولكنه ما زال بالحِب باقيا ... كمثل خيالاتٍ تُطِيف وتطرُق
يضىء ويخبو كالسراب وما به ... رِوًى لِصَدٍ قد كاد بالوجد يَشرَقُ
كأنى به يبغى من القبر أوبةً ... وهل عائد ما دونه القبر مطبق ؟
فيا قلب دع ذكر الوَدَادَةِ جانبا ... فإن الذى أمّلت لا يتحقق

هُوراشْيُوس

للأستاذ عبد العزيز عتيق

— ١ —

على أسوار رومة

١ — للمؤرخ الانجليزي توماس بابنجتون ماكولى
قصة « هوراشيوس » من روائع الأدب الرومانى القديم يجد فيها القارىء مثالية البطولة ، وقد نقلها إلى الانجليزية الكاتب المؤرخ توماس بابنجتون ماكولى فى كتابه « أناشيد رومة القديمة » « Lays of Ancient Rome » وقد اطلعنا عليها فى المجلد الأول من كتاب « الآداب العالمية » صفحة ٤٢٨ « للدكتور رتشاردجارنت » فآثرنا تلخيصها إلى العربية ، فما أجمل أن يسري مثل ذلك الايمان الوطنى إلى صميم جيلنا الجديد .

٢ — شيوخ رومة وقد وقفوا على الحائط ينظرون إلى ماوراء نهر تيبر حيث جنود التوسكانيين يقودهم « لارس بورسينا » إلى رومة .

٣ — ليس للجنود المغيرين طريق يؤدي بهم إلى رومة إلا قنطرة ضيقة على النهر .

الرومانى الأول : يجب أن نضع فى الحال خطة تنقذ رومة من هذا العدو الزاحف !

رومانى ثانـــ : انظروا ! إن جنودنا تتقهقر !

» ثالث : وماذا يستطيع جيشنا الصغير أمام تلك الجموع الهائلة ؟

» رابع : لم يبق من طريق للنجاة ، إلا أن يتمكن جيشنا من اجتياز القنطرة قبل أن يصل التوسكانيون اليها !

الرومانى الثالث : يجب أن نعمل فى الحال عملا ، وإلا فقدنا أنفسنا !

» الرابع : إنى أقترح أن تسرع جنودنا فى عبور القنطرة حالما يصلون

إليها ، وحينئذ نستطيع أن ندمرها ، وهكذا نحول بين العدو وبين ملاحقة جيشنا !

الرومانى الأول : قد يبدو ذلك سهلا ، ولكن من هذا الذى أوتى من الشجاعة مايجعله يثبت أمام جحافل العدو على الضفة الأخرى للنهر ، حتى يتم هدم القنطرة ؟

« الثانى : أيها الرومان ! انظروا ماوراء النهر ! إن العدو قد تغلب ثانية على قواتنا ! كل مايمكن عمله يجب أن يعمل الآن !

الرومانى الرابع : هاهو هوارشيوس قادما . لننتظر فربما استطاع أن يشير علينا !

« الثانى : إن هذا اليوم يا هوراشيوس من أيام رومة العصيبة ، وإذا لم نضع خطة للنجاة محكمة ، فان العدو سيكون على أبواب المدينة قبل المساء !

هوراشيوس : لقد تكلمت مع جنودى ، وقررنا ألا نجاة لرومة بغير وسيلة واحدة .

الرومانى الثانى : طريقة للنجاة ياهوارشيوس ؟ ماهى ؟

هوراشيوس : هدم القنطرة ، وإزالتها من فوق النهر !

الرومانى الثانى : هذا ما كنا نفكر فيه تماماً ، ولكن كيف يتم ذلك إذا لم يثبت بعض جنودنا فى نهاية القنطرة ، ليناجزوا العدو ريثما نزيل القنطرة ؟

هوراشيوس . ثلاثة من الرجال فقط يمكنهم أن يثبتوا فى مدخل القنطرة الضيق أمام مائة من جنود العدو !

الروماني الأول : ذلك حق ، ولكنه موت محقق لهم . ثم مَن لنا بثلاثة لهم من الشجاعة مايُقدرهم على مواجهة العدو فى جيوشه الكثيفة ؟

هوراشيوس : إن الموت نهاية كل حى عاجلا أو آجلا . ومن للرومانى بميتة أسعد مما تكون فى سبيل رومة ؟ سأكون أول الثلاثة ، وأعتقد أنى واجد رجلين آخرين . من سيقف بجانبى ؟

الروماني الثالث : أحسنت ياهوراشيوس !

هوراشيوس : « لجنوده » أريد اثنين يقفان بجانبي فى نهاية القنطرة . اثنين يعترضان معى طريق الأعداء حتى تسقط القنطرة فى النهر ! إننا قادمون على قتال عنيف طويل ، وربما كان قتال استشهاد ، لا نعود بعده لرومة . فمن يخاطر معى ؟

« جنديان يخطوان إلى الأمام »

سبيريس لارتياس: أنا سبيريس لارتياس أنضم إليك .

هوراشيوس : شكراً لك يا سبيريس . إنك لشجاع ، ومحارب قوى ! وتستطيع أن تثبت أمام جموع كثيرة !

تيتس : وأنا تيتس هيرمينيس أنضم إليكما .

هوراشيوس : عظيم جدا ! بجنديين كهذين ، أحدهما عن يسارى والآخر عن يمينى لن يخطو العدو على القنطرة قبل قتال عنيف طويل !

الرومانى الثانى : أيها الأبطال ! إنه لمستحيل علينا نحن الباقين خلفكم أن نعبر عن مدى الشكر ! إنكم تجودون بأرواحكم فى سبيل رومة !

هوراشيوس : ماطلبنا شكراً . إننا نفعل بعض ماللوطن من حق ! إننا نفدى حرية أطفالنا بدمائنا ! والآن هلم ياسبيريس، وأنت ياتيتس لقد خضنا كثيرا من المعارك جنباً إلى جنب ، وإنه ليطيب لى أن نستشهد معاً ! هاهم جنودنا يجتازون القنطرة ، فلنسرع إلى القيام بواجبنا !

— ٢ —

« شيوخ رومة لا يزالون حيث كانوا على السور الكبير »

الرومانى الأول : إنها لخطة صائبة ! انظروا ! لقد اجتازت قواتنا القنطرة !

« الثانى : وهاهم الحراس قد فتحوا لهم الأبواب ، ليعتصموا بها !

« الثالث : أترون القوات المحتشدة حول القنطرة ؟ إنهم يعملون بجد

وعزم ، لقد أوشكوا على الفراغ من إسقاطها فى النهر !
هذا حسن !

الرومانى الأول : الأحسن من ذلك ، هو هوراشيوس وصاحباه ! إنهم يقاتلون هناك بسيف المستميت !

« الثانى : انظروا كيف يقفون فى وجه العدو كأنهم الأسود الضوارى ! إنهم لا يسمحون للعدو بأن يتقدم خطوة واحدة على القنطرة !

الرومانى الثالث : يالك من شجاع ياهوراشيوس ! ألا ترون كيف ترتد السهام عن جانبيه ، وكيف يحمل على الأعداء كالليث ؟ ليس هذا رجلا فقط . إنه رجل قد صُبَّ فى أعصابه عزم أمة ، وقوة جيش ! !

هوارشيوس : إن العدو قد تقهقر ليفكر فى خطة هجوم جديدة ، لنسترح إذا قليلا ياتيتس

تيتـــس : هل رأيت كيف كانوا يضحكون منا أول الأمر ياهوراشيوس ؟

سبيريس : إنهم قادمون هنالك فلنستعد ، ولننهض لملاقاتهم !

تيتـــس : مالهم يحذرون هكذا ياسبيريس ؟ إنهم يخافون أن يكونوا فى متناول سيوفنا !

سبيريس : حبذا هذا الخوف ! إنه جيش جديد يحارب معنا ! إنه يطعنهم فى قلوبهم كما نطعنهم فى أجسامهم ! انظر يا تيتس إلى الجثث المضرجة بالدماء أمامنا ؟ لقد خارت قواى ! لن أصبر على المقاومة إذا هجموا بعنف وقوة بعد الآن ! أأصبت ياتيتس ؟ لماذا تمسك السيف بيدك اليسرى ؟

تيتـــس : لقد أصيبت يدى اليمنى ، ولكن ذلك غير مهم ياسبيريس ، إنى أسمع رجالنا ينادون من نهاية القنطرة الأخرى ، فماذا يقولون ؟

سبيريس : هم يخبروننا بأن القنطرة على وشك السقوط فى النهر !

هوراشيوس : إلى الوراء ياتيتس ! وأنت ياسبيريس ! إلى الوراء معاً قبل أن تسقط القنطرة ، لتبتعدا الآن ياصديقى إنى سأتبعكما !

تيتس : هلم ياسبيريس فهذا وقت النجاة .

سبيريس : نعم هلم ياتيتس ! لنسرع فى اجتياز القنطرة قبل سقوطها ! !

٣

« على شاطىء النهر قرب رومة »

تيتس : [بعد أن نظر إلى الخلف] قف سبيريس ! لقد تركنا هوراشيوس منفردا ! لماذا لم يتبعنا فى الحال ؟

سبيريس : لن نستطيع أن نفعل له الآن شيئا بعد أن سقطت القنطرة ! إنه الآن فى موقف حرج ! إنه يحتاج إلى مساعدتنا ! انظر ياتيتس كيف تغلب عليه التوسكانيون ؟

تيتس : انظر ياسبيريس كيف يتلقى مواقع السيوف ؟ انظر هذه الضربة الأخيرة ؟ لقد نالت من وجهه تماما ! لابد أنها قد ذهبت باحدى عينيه !

سبيريس : ما أعجب هوراشيوس من محارب شجاع ! إنه لايزال يقاتل بعد أن تكسر سيفه !

تيتس : إنى أعرف ماسيفعل الآن !

سبيريس : ماذا سيفعل ياتيتس ؟

تيتس : سيظل يدافع عن نفسه حتى تحين فرصة ، فيقفز فى النهر !

سبيريس : انظر ! هاهو قد قفز ! حسنا فعلت ياهوراشيوس ! إنه فى حالة خطرة ياتيتس !

تيتس : أنت مخطىء ياسبيريس ! إنه مازال يقاتل ! يقاتل فى سبيل حياته ضد الأمواج !

سبيريس : هاهو يسبح إلى الشاطئ. نحونا ! استمر ياهوراشيوس فهذا هو سبيل النجاة ! انظر ياتيتس أن الماء يحمله نحونا !

تيتس : هلم ياسبيريس ! هلم نساعده ، فقد صار دانياً من الموت !

٤

« يلقيان بأنفسهما في النهر لينقذا هوراشيوس »

سبيريس : لو عرفنا أنك مصمم على البقاء وحدك يا هوراشيوس ما تركناك .

هوراشيوس : النجدة ياصديقى ، لقد ذهبت هذه المعركة بنصف بصرى ! ولكن لابأس فقد أنقذنا رومة اليوم . وسنعيش لنقاتل من أجلها مرة ثانية !

تيتس : هلم إلى المدينة ياهوراشيوس ! إن الرومان يهتفون باسمك هناك ، وإن شيوخ رومة قد رأوا من فوق الأسوار كل شىء ! إنهم يرغبون فى شكرك ، فقد فعلت ما ظنوه مستحيلا . وأنقذت رومة !

هوراشيوس : لست خطيبا ياتيتس ولكنى جندى فقط ! خذنى إلى مكان أستريح فيه ! وأنت ياسبيريس هل تستطيع أن تضمد جراحى ؟ حاول أن تمنع الدم الذى يخفى وجهى ، آه إنى أشعر بقشعريرة تمشى فى أوصالى ! زملنى ياتيتس بثوبك . لقد أتعبتكما ياصديقى ، ولكن هيهات أن أنسى كم حاربتما إلى جانبى فى هذا اليوم بشجاعة ستبقى مضرب الأمثال ، على تعاقب الأجيال !

عبد العزيز عتيق

شيخنا البطراوى بك

للأستاذ على الجندى

« تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فانعم برتبة البكوية على الاستاذ الجليل محمود البطراوى بك »

عَرَا القلبَ من فَرْط السرور خُفوقُ ... وقلبي خَلِيقٌ بالسرور حَقِيق
صديقى وأستاذى تبوأ رتبةً ... من المجد، بالشيخ الوقور تليق
تَرِفُّ على عِطْفَيْهِ حُسنًا وبهجةً ... كما رفَّ فى صَحْن الخدود شقيق
أتت نحوه تسعى اشتياقًا، فمن رأى ... مشوقًا أتى يسعى إليه مشوق ! !
لئن زيَّنته ـ وهى زينٌ لأهلها ـ ... لقد زانها سامى الخلال صَدُوق
سقى الله أيَّاما سُقِينا ودادَه ... بهنَّ رحيقًا ، والودادُ رحيق
له نحن أبناء كرام ، يَحُوطهمْ ... أبٌ منه سَمْحُ الأصْغَرَيْنِ رفيق
ولولاه ما جَلَّيتُ سَبْقًا إلى العُلاَ ... ولا كنتُ أصْبُو نحوَها وأتوق
وما كان مثلى للجميل بناكر ... ألا إنّ نكرانَ الجميل عُقوق
رضيتُ عن الدنيا، وقد كنت ساخطًا ... على كبدى منها لظًى وحروق
فإن لم أجد (خَيْلًا ومالًا) أسوقُه ... فشعرىَ فى هام الكريم خَلُوق
أحقُّ بأنْ يُطرِى بنى المجد شاعرٌ ... له سبب بالماجدين وثيق
وما كل شعرٍ للمسامع حِلْيةٌ ... ولا كل زهرٍ فى العيون أنيق
زففناه كالريحان فى رونق الضحا ... له نَضْرَةٌ أخّاذة وعبيـق

شأوْتُ به من راح يعدو مشمّرا ـ على هِينةٍ ـ والبُحتريُّ سَبوق
ولولا الذى وُرِّثتُه من مفاخرٍ قنعت بها ، قامتْ لشعرىَ سوق

٭٭٭

أأبناء « دارى » بارك الله فيكمو فما منكمو إلا أغــرُّ عتيق
إذا أظلمت أنسابُ قوم ، تألقت فروع لكم فى (يَعْرُبٍ) وعروق
وهبت لكم شعرى ونثرى، وإننى ـ على الرغم مما نابنى ـ لصديق
إذا حَمِيَتْ هيجاء كانت يَراعتى سِهَاماً ، لها فى الشانئين فُتوق
فلا تنكلوا يوم الفخار فإنّما « فرزدقكم » يوم الفخار عريق
ولا تُضْمروا يأساً ـ وفى اليأس راحةـ لعل الجدودَ النائمات تُفيق
فإن أغمضتْ عنا الحظوظُ عيونَها فقد يُطرح الصمصام وهو ذليق
وقد تقعُدُ الجُرد المذاكى عن المدى على أنها عند السباق بُروق
وقد تَحْجُبُ الأقمارَ ـ وهى سواطعٌ ـ سحائبُ تغتال السَّنَى وتعوق
أشَدْنا بفخرٍ يشهد الناس أنه أصيلٌ ، وبعض الفاخرين لصيق

٭٭٭

رعى الله « فاروقا » ولازال عودُه تمرُّ به الأيام وهو وَريق
ولا زال مرموقَ الجلالة والسنى كما افترَّ عن وجه الصباح شُروق
رعى العلمَ ـ فى « شيخٍ » به العلمُ يزدهى وأخلاقُه مِسكٌ أحمُّ فتيق

مصطفى صادق الرافعي

بمناسبة تمام سـنة على وفاته

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

« دعت مصلحة الاذاعة الفلسطينية بالقدس الأستاذ محمد سعيد العريان ليذيع حديثاً عن فقيد العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي لمناسبة تمام سنة على وفاته فى مساء الاثنين ٩ مايو سنة ١٩٣٨ ، وآثرته بهذه الدعوة لما كان بينه وبين المرحوم الرافعي من صلة هيأته لدراسته ورواية تاريخه والتحدث عن أدبه وفنه ومذهبه

« والكلمة التالية هى نص الحديث الذى أذاعه من محطة القدس تلبية لهذه الدعوة » .

سيداتى ، آنساتى ، سادتى

سلام الله عليكم أهلَ هذه الأرض الطيبة ... ومعذرة ، وشكراً ...

لكأنى بكم ترهفون السمع لتسمعوا ما يمكن أن أحدثكم به عن الرافعي فى ذكراه الأولى ، وما أنا بمستطيع فى هذه الفترة القصيرة من الزمن أن أبلغ ما أريد وتريدون من الحديث عن الرافعي .

لم يكن الرافعي أديباً كبعض من نقرأ لهم من أدباء الصحافة ، ولكنه كان علماً من أعلام الأدب ، وإماماً من أئمة الدين ، وبرهاناً من براهين العربية تجالد به حين يعوزها البرهان .

ولقد يكون من فضول القول أن أتحدث إليكم عن أدب الرافعي وآثاره الأدبية بين أيديكم وتحت أعينكم ؛ وإنكم لتعرفون أدبه وتعرفونه بأدبه . ولكنى

قد صحبت الرافعى عمراً من عمرى ، فعرفته أكثر مما يعرفه الناس ، فليكن حديثى الليلة عن الرافعى الذى عرفته ...

لقد سمعت اسم الرافعى لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً ، لا أكاد أفهم ما يلقى إلىّ ، سمعت به وأنا طالب فى الصفوف الأولى ، فسمعت اسماً له جرَس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه فى جوانب نفسى ، فحبب إلىّ من ذلك اليوم أن ألقاه ...

ورأيته لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلا كبعض من أعرف من الناس : له ما لهم مما يتميز به الانسان . وقال لى صاحبى : « هذا هو الرافعى ! » وكان جالساً وقتئذ فى قهوة على الطريق ، وبين يديه صحف يقرؤها ، وأمامه فنجانة قهوة . فوقفت برهة أنظر إلى الشخص الماثل أمامى ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص الذى بعينى هو الشخص الذى فى نفسى ... وخطوت إليه خطوة فألقيت إليه السلام أجعله زلفى إليه ؛ فما رفع إلىّ عينيه ولا ردّ التحية ... وصغرت نفسى فى عينى فمضيت عنه منكسراً ذليلا وفى النفس غيظ وألم ؛ ورانت غشاوة على صورته فى قلبى ...

ومضت أيام ، ولقيته بعدها فى المسجد خارجاً من صلاة الجمعة وعلى الباب زحام ؛ فزحمته بكتفى حتى سبقته إلى الباب وخلفته ورائى لايخلص إلى الطريق ، واستراحت نفسى لأننى قد انتقمت !

وقال لى رفيق : « وَىْ ! أتعرف من ذلك الذى أخذت عليه الطريق عامداً ؟ » قلت : « صه ، لا يسمعْك فيسوءنى جوابه ! » قال : « لاعليك ! إن فى أذنيه وقراً فلا يسمع ! »

وتبدلت فى نفسى صورة بصورة ، وامحى ألم ليحل فى نفسى من بعده ألم آخر ... وعرفت وقتئذ لماذا لم يرفع عينيه إلىّ ولم يرد التحية ...

ولقيته بعد ذلك مرات كثيرة ، فى الطريق ، وفى القهوة ، وفى السيما ؛ وقرأت له مرات أكثر ، فى الكتب ، وفى الصحف ، وفى المجلات ؛ وعرفته ، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكنى لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد هذه الحادثة

بعشر سنين ... حين جلست اليه لأول مرة فى دار كتبه من داره ، عرفته على حقيقته وفطرة نفسه ، فكأنني لم أعرفه قبل ذلك اليوم ... وما فارقته من بعدحتى فرق بيننا الموت . يرحمه الله !

إنى لأحس حين أذكره الساعة كأننى لست وحدى ، وكأن روحاً حبيبة تُطيف بى وترف حولى بجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرْسه ونغمته ، وكأن عينين تطلان على من عالم غير منظور لتأمرانى أمراً وتلهمانى الفكر والبيان ، ولكننى لاأرى، ولكننى لاأسمع ، ولكنى هنا وحدى ، تتغشانى الذكرى فتخيل إلىّ ماليس فى دنياى . هيهات هيهات لوهم الأمانى !

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية . لقد كان هنا إنسان يملأ فراغا من الزمان . لقد كان هنا قلم يصر صريرا فيه رنات المثانى ، وفيه أنات الوجع ؛ وفيه همسات الأمانى ، وفيه صرخات الفزع ؛ فيه نشيج البكاء ، وفيه موسيقى الفرح ... خفت الصوت ، ومات الإنسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر ما زال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء .

فى كل يوم يموت أديب من أدباء العربية وينشأ أديب ؛ فأين ، أين الأديب الذى ينتدب بعد الرافعى ليقف لكل من يحاول التقحم على قدس القرآن ؟ أين ... أين الأديب الذى يقف قلمه وبيانه للدفاع عن العرب والعربية والإسلام ؟ أين ... أين الكاتب الألمعى الذى يصور طهر الحب ، وسموّ الانسانية ، وآلام البشرية ، وأفراح الحياة ؛ فتنبثق نورا فى كل قلب ، وتتفجر شعورا فى كل وجدان ؟ أين خليفة الرافعى الذى يقوم على سداد هذا الثغر المعطل ؟ أين حامل اللواء ، وأين صاحب القلم ؟

لقد كان الرافعى عصرا بتمامه من عصور الأدب ، وجيلاً بناسه فى تاريخ العرب ، وفصلاً بعنوانه فى مجد الاسلام .

* * *

كانت الدنيا تموج من حوله بأناسيّها وحوادثها ، وتضطرب حواليه فى أمانيها

ونوازيها ، وتصطخب فى محيطه بشهواتهـا ونوازعها ؛ وهو وحده يعيش من هذا المحيط المضطرب المائج المصطخب فى دنيا وحده ، لا يسمع إلا همسات روحه ، ولا يحس إلا خلجات قلبـه ، ولا ينظر إلا الهدف الذى يسعى إليه. وهيأه القدر بوسائله العجيبة لهذه الوحدة العقلية منذ صباه حين سلبه السمع ، فعاش حياته بعيدا عن دنيا النـاس ، ومضى فى طريقه كما يمضى عابر السبيل : لا يُلقى باله إلى شىء مما حواليه أو يبلغَ إلى غايته ...

***

لم يكن الرافعى ليعرف شيئاً فى السياسة ولا له رأىٌ فيها ؛ ولـكن له هدفاً عاش يسعى جاهدا لتحقيقه : هو أن يبعث الحمية الاسلامية فى نفس كل مسلم ، ويوقظ النخوة العربية فى قلب كل عربى ؛ فكان بذلك رسول العروبة والاسلام إلى كل مسلم وكل عربى ، فلا جرم كان بذلك أحب كتاب العربية إلى كل مسلم وكل عربى .

حياته الأدبية كلها تدور حول هذا المحور ، ومنشآته الأدبية كلها يسعى بها إلى هذا الهدف ، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب فى هذا المعترك ، وما عادى عدوا قط من أدباء العربية إلا للدين أو اللغة أو القرآن ، وما اتخذ صديقاً من رجال الأدب أو السياسة إلا للدين أو اللغة أو القرآن .

لقد حاول كثير من مؤرخى الأدب أن يتحدثوا عن الرافعى فى حياته ، فقالوا شاعر . وقالوا كاتب . وقالوا أديب . وقالوا عالم . وقالوا مؤرخ . ولـكنهم لم يقولوا الكلمة التى كان ينبغى أن تقال : لقد كان شاعرا ، وكاتباً ، وأديباً ، وعالماً ، ومؤرخاً ؛ ولـكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ، كان هبةَ الله إلى الأمة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبهها إلى حقائق وجودها ، وليردَّها إلى مقوِّماتها ، وليشخّص لها شخصيتها التى تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتى تعتز بها ولا تعمل لها

وكان يشعر أنه وحده فى الميدان والجميع إلبٌ عليه ، فعاش حياته كلها يصارع ويناضل ، حتى خر صريعاً وفى يده الراية ، لم يتركها حتى انتزعها الموت من يده !

كثر ما قال عنه أعداؤه وغير أعدائه فى حياته : إنه حديد اللسان . إنه لدود الخصام . إنه لا يرعى اعتباراً مما تقوم به الصلات بين أهل الأدب حين ينزل إلى معترك من معارك النقد، صدقوا . ولكن ... أرأيت معرّة على البدوى الثائر لعرضه أن يسفك الدم ؟ إنه هو هو ؛ فمن ذلك كانت شدته وصرامته ولدده فى الخصام : فى سبيل القرآن ، ومن أجل العروبة ، ولكرامة الاسلام . كان ذلك عِرْضه الذى يحرص عليه أن ينتهك ، فمن ثَمَّ كانت خصوماته الأدبية كلها فيها معنى الدم

الدين ، واللغة ، والقرآن ، أو العروبة والاسلام : ذلك كان مذهبه فى الأدب وله كان جهاده ، حتى فى الحب — وللرافعى حب مشهور — وحتى فيما أنشأ من رسائل الحب ، لم يكن الرافعى يعتبر إلا مذهبه والهدف الذى يسعى إليه : للدين وللغة ، وللقرآن ...

من شاء فليقرأ كتبه الثلاثة فى فلسفة الجمال والحب ، ليرى فيها كيف تسمو روح العاشق على شهوات البشرية حتى تتصل بخالقها الأعلى ، ثم ليرى العربية أسلوباً جديداً فيه عمق الفن ودقة التعبير ووضوح الأداء حتى فى الترجمة عن أعمق ماتجيش به خفايا النفس الانسانية

* * *

ولأدب الرافعى ميزة ليست لكثير من أدباء الجيل ، فهو أدب عليه طابع الخلود وتلك آداب إلى زوال : هذا أدبه بين أيدينا وتحت أعيننا ، ماتزال تدفعنا إليه دوافع من أنفسنا فى فترات متقاربة أو متباعدة ، لنعيد قراءته ونتملى مافيه من جمال وصدق وقوة . وذلك أدب الأدباء ، ما يكاد القارىء ينتهى منه إلى ما يريد حتى ينساه فلا يعود إليه ولا يذكره ، على مافيه من لذة ومتاع !

لم يكن الرافعى يكتب تلك الكتابة الصحافية السوقية التى تلتمس للهو

وإزجاء الفراغ ، ولكنه كان يكتب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة ، وينشىء أدباً يسمو بضمير الأمة ، ويشرع طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية ومجد التاريخ .

الرافعى ! يرحمه الله ! لقد عاش فى خدمة العربية سبعاً وثلاثين سنة من عمره القصير ، وَصَل بها حاضرَها الماثلَ بماضيها البعيد ، فهى على حساب الزمن سبع وثلاثون ، ولكنها على الحقيقة شطر من عمر الزمان ، وباب من الأدب ، وفصل فى تاريخ الاسلام

لقد عاش غريباً ومات غريباً ، فكأنما كان رجلا من التاريخ بُعث فى غير زمانه ، ليكون تاريخاً حياً ينطق بالعبرة ويجمع تجاريب الأجيال ، يذكر الأمة العربية الاسلامية بماضيها المجيد ، ثم عاد إلى التاريخ بعد ما بلّغ رسالته لقد خفت الصوت ، ولكنه خلّف صداه فى أذن كل عربى ، وفى قلب كل مسلم ، يدعوه إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الاسلام .

محمد سعيد العريان

بين القط والفأر

رواية تمثيليـة يقوم بأدوارها التلاميذ

للأستاذ عبد العزيز محمد خليل

(القط يقف كئيباً ويقول)

هل من سخيٍّ سعيدٍ يرثى إلى ســوء حالى
بفضـــلةٍ من ثريدٍ أو كسرةٍ لعيالى ؟

عَجزت عن كسب قوتى وأوْهنتنى الليـــالى
وصرت كالعنكبوتِ ضعفاً ورقـــةَ حالِ

(الفار يرد عليه فى جحره)

أهلاً بشيخٍ ضـــعيفٍ على عَصَاه يســيرُ
وذى عيالٍ كفيفٍ ممـــا به يستجيرُ

القط:

دَعْـــنِى وشأنى فإنى لا أستطيبُ المزاحَا
من كانَ فى مثـــلِ سنّى وكَبْرَتِى لا يُلاحَى ! !

الفار:

لا ، لا ، فإنى جوادُ أحْنُو عَلَى البائسينـــا
فى البيت ماءٌ وزادُ أُعطيهما المسكينـــا

الفار مع أمه:

أمَّاهُ ، أيْنَ الدسَمْ ؟ وأينَ بيتُ الدقيقِ ؟
فـــذاكَ قِطٌّ هرِمْ ! ألفيتُـــه فى الطريقِ

الام تنصح ابنها

يا دِرْصُ ، دَعْهُ وحاذِرْه   ضعفَ العـــدوِّ اللئيمِ
فإنَّ ذا القطَّ غادِرٌ   فى ثوبِ شيخٍ سقيمِ

الفار وأمه يتناقشان

غَـدْرٌ لماذا وخَبٌّ ؟   طبعٌ له من قـديمِ
هذا ادّعاء وكِذْبٌ !   اسمع عظاتِ الحكيمِ

الفار للقط

إنى أُواسى الضـعيفا   ما بَالُ أُمِّى تَحُولُ
يا قِطُّ خُذْ ذا رَغِيفا   وذَاكَ أُرْزٌ وَفُولُ

القط للفار

نِوٌّ تعـــال إليَّا   فإنـــنِي لا أُطيقُ
قرِّبْهُ مِنِّىَ ، هيَّـــا   قـد أجهدتني الطريقُ

القط يفترسه

نِوٌّ ، نِوُو ، نِوُو   دِرْصٌ يحبُّ العِنادا
نِوٌّ ، نوو ، نوُو   بالمكرِ نِلْتُ المُرادا

الام تبكى ابنها

يا نُورَ عَيْنِى بَكَتْـكا   ويا سُوَيْداءَ قلْبِى !!
خَالفتَ أُمًّا حَبَتْـكا   نُصْحَ الشفيقِ المحبِّ

الام تطلب الطبيب

مَنْ لِى ؟ يُنادِى الطبيبا   أَنَا لهـا . أَنَا وحْدِى
إِبْنِى ! ضَنَاىَ ! الحبيبا   يا طولَ وجْدِى وسُهْدِى

الطبيب والام

مِمَّ الشكاةُ ؟ صَرِيعٌ   جَنَى عليـــه عنادُهْ
رَبَّاهُ !! جُرْحٌ فظيعٌ   يُخْشَى عليـه فسـادُهْ

(الاولاد جميعاً يبكون) هذا أخوكم جريحاً حياته في هبوط
أمسى عليلاً طريحاً بين الرجا والقنوط

(الحكمة بقولها لطفلان) من يفعل الخير فيما لا يستحق يُضرّ
ومن يخالف حكيماً في رأيه لا يُسرّ

(الاولاد جميعا) هذي عظات نراها وعبرة مستفاده
وحكمة من وعاها نجا ونال السعاده

الحلمية عبد العزيز محمد خليل

أحمد الاسكندرى بك

بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته

١٨٧٥ - ١٩٣٨

بقلم تلميذه وصهره

الأستاذ محمد أحمد برانق

اتصل بى كثير من الأدباء الذين يقدرون المغفور له الاستاذ أحمد الاسكندرى قدره ، ويقرون له بالفضل (وبخاصة أدباء لبنان وفلسطين وغيرهما من الأقطار الشقيقة) . وطلبوا إلى أن أقدم لهم كلمة فى تاريخ حياته ، وموجزا عن آثاره العلمية والأدبية ، ليكون نواة لما يقال عنه فى حفلة تأبين يقيمها أدباء بيروت ، ولما يلقى من محطة الاذاعة فى فلسطين ، ولكن شدة وقع المصيبة كاد يصرفنى عن كل شىء حتى هذا ، إلا أنى غالبت ذلك الضيق الذى أحس مرارته فى نفسى ، واستطعت أن أكتب ما أرجو أن يكون فيه بعض الغناء إلى حين ، حتى إذا أمكنتنى الفرصة من وضع يدى على آثاره الأدبية المخطوطة ، جلوتها للأدباء ، وفاء له ، واعترافا بفضله .

ooo

نشأته :

صدر العلماء ، وغرة الأدباء ، وباقعة عصره ـ أحمد بن على عمر الاسكندرى : ولد فى مدينة الإسكندرية فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٥ تعهده أبوه بالتعليم ، وبعد أن حفظ القرآن وأجاده ـ التحق بالمعهد الدينى بالأسكندرية ، المعروف بجامع الشيخ ، وأكب على التحصيل ، ولكن مناهج التدريس لم تشبعه ، فكان يقرأ

الكتب التى تقع تحت يده ، ومنها قصص عنترة ، وأبى زيد ، وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة . ونحوها ، فأولع بالأدب ، وقرض الشعر يافعا ، وعرفه بعض أبناء الأعيان المتأدبين ، ولكن الأفق العلمى فى الأسكندرية أصبح محدودا أمامه . فرغب فى النزوح إلى القاهرة حيث الأفق أوسع ، ولكن والده لم يوافقه ؛ إلا أن الهمة البعيدة الموهوبة ، تفك القيود ، وتحطم الأغلال ، وتحتال لتقهر كل صعب ، فصمم الغلام أحمد الاسكندرى على الرحلة إلى القاهرة ، وجمع كتبه وحزمها ، وخرج فى غفلة من أهل الدار ، وليس فى جيبه إلا دريهمات كان قد ادخرها ، وصحبه فى سفره اثنان لا أذكر اسميهما ، أما أحدهما فإنه تخلف فى حدود الاسكندرية ، وأما الآخر فانه صحب أحمد وركبا مركبا يسير فى ترعة المحمودية حتى وصلا إلى مدينة كفر الزيات . وهنا نفد زادهما ودريهماتهما ، فعاد الرفيق إلى الاسكندرية ، أما هو فان عزمه حديد لا يفل . فقد حمل كتبه على ظهره ، ومشى على قدميه من مدينة كفر الزيات حتى وصل إلى القاهرة ، وهو حدث ، والتحق بالأزهر ، ليتلقى علوم اللغة والدين ، وفى سنة ١٨٩٤ التحق بمدرسة دار العلوم ، وكان أصغر زملائه سناً ، وأنبههم ذكراً ، وأوسعهم معرفة ، وكان من عادة المدرسة حينئذ ، أن تعقد فى أول كل سنة دراسية اختباراً عاماً لطلبة المدرسة ، فى كتب تعينها لهم ، ثم فى المعلومات العامة ، فكان الاسكندرى فى كل عام فارس الحلبة الذى لا يدرك ، فتخصه المدرسة بجوائزها .

وكان أيام الطلب مبرزاً فى مادة الانشاء ، بديع الصنعة ، مليح الصيغة ، كتب أول أمره على الطريقة الشائعة إذ ذاك ، وهى طريقة السجع ، وله موضوعات كانت موضع إعجاب أساتذة الانشاء فى عصره ، فأطروها ونشروها منسوبة إليه فى كتب لهم ، ولعل من هؤلاء الشيخ مفتاحاً — إن لم تكن الذاكرة قد خانتنى — فانه نشر له موضوعاً فى وصف قنطرة قصر النيل (الخديو إسماعيل الآن) ، فى كتاب له .

تخرج فى دار العلوم سنة ١٨٩٨ ، واشتغل بالتدريس فى المدارس الأميرية

ثم كان ناظراً لمدرسة المعلمين فى الفيوم فالمنصورة ، وفى هذه الأثناء ظل على نشاطه الفكرى . فأخذ من محاسن الآداب بأوفر حظ .

فى دار العلوم :

فى سنة ١٩٠٧ انتقل إلى دار العلوم لتدريس مادتى الانشاء والأدب العربى وظل يزاول ذلك العمل بتلك المدرسة زهاء سبعة وعشرين عاما ، ألف فى أثنائها كتابا عن الأدب العربى فى العصر العباسى ، أجمع الأدباء على أنه كان المعين الذى استقى منه جميع من بحثوا فى تاريخ الأدب من بعده — ووضع لطلبته مذكرات فى العصور الأخرى ، كانت وما تزال عدة الطلبة ، يجدون فيها طلبتهم فيستعينون بها على تهيئة أنفسهم لأن يكونوا أدباء باحثين ، لما تحتويه من الحقائق العلمية والفنية ، الخالية من الزخرفة والتهويل ، ولأنها ترسم لهم طريق البحث فى أحدث صورة .

وكان منهج تاريخ الأدب فى دار العلوم ، يحتوى فوق النظريات العامة تراجم كثيرة لعدد كثير من الكتاب والشعراء والخطباء والعلماء وغيرهم ؛ فكانوا يضطرون إلى وضع مختصرات تشبه المتون ، وهذا لا يعلم الطلبة ، ولا يربى فيهم ملكة البحث ، فاقترح — رحمه الله — أن يكتفى بدراسة بضع تراجم بحيث يدرس المترجم دراسة تفصيلية تحليلية وافية ، يرى فيها الطلاب نبراساً يهتدون به إذا حاولوا مزاولة البحث ، أو تصدوا لاستقصاء أى عمل علمى ، وحمل هو هذا العبء بادئاً ونهض به ؛ وكان من حسن حظى أن كنت من أول من تتلمذوا عليه حين زاول هذا العمل ، فاستفدنا منه أجل فائدة ، وهو أول من اقترح تدريس فقه اللغة فى مدرسة دار العلوم ، وكان غير معروف من قبل فى المدارس المصرية . وتقدم لعمل المنهج ، وحمل عبء تدريسه ، فقسمه قسمين : قسم فلسفى نظرى يتعلق بنشأة اللغات ، والاشتقاق ، والنحت ، واختلاف اللهجات ، وغير ذلك ؛ وقسم نظرى ، يتعلق بوضع الألفاظ اللغوية للمسميات ، وكان مجددا فى ذلك ، فوفقه الله كل التوفيق ، وجاء من بعده فاهتدوا بهديه ، وساروا فى نهجه .

وفى سنة ١٩٢٢ عرض عليه ،وظف كبير كان بوزارة المعارف أن يزج بنفسه فى المعترك السياسى ، وأن يحرر مقالات ينشرها فى الصحف اليومية ، يؤيد بها حزبا معيناً ، فأبت عليه نفسه أن يفعل ، محتجاً بأن العلماء أحرى بهم الا يكونوا ساسة ، و أن ما يتطلبه العلم من الأخلاق غير ما تتطلبه السياسة .

وجميع من تخرجوا فى دار العلوم من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٣٤ . تتلمذو عليه ما عدا فرقتين اثنتين .

فى الجامعة :

وفى سنة ١٩٣٣ اختير أستاذا للأدب العربى بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، فاضطلع بذلك العمل . على أكمل وجه وأتمه ، فأحبه تلاميذه ، وأقبلوا عليه ، وأفادوا منه .

فى المكتب الفنى :

وفى سنة ١٩٣٥ كتب إليه وزير المعارف إذ ذاك ، خطاباً يخبره فيه أنه يريد أن ينتفع بعلمه الواسع ، وتجاربه الطويلة فى المكتب الفنى فى وزارة المعارف ، فكان فيه عضواً عاملا ، وكانت له مشاركة تامة فى وضع مناهج اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، وفى مراجعة الكتب العربية لهذه المدارس .

فى المجمع اللغوى :

عند ما أنشىء المجمع اللغوى الملكى فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وقع عليه الاختيار ليكون عضواً من أعضائه ، وإن من يراجع محاضر جلسات المجمع فى سنواته الخمس ، يجد أنه كان المحور الذى تدور حوله المقترحات والمناقشات فكان بحق كما وصفه بعض العارفين « مخ المجمع » ، ولما تكونت اللجان الفرعية ساهم فى أكثرها ، فكان عضواً فى لجنة الرياضيات ولجنة العلوم الطبيعية والكيميائية ، ولجنة علوم الحياة والطب ، ولجنة المجلة ، ولجنة خزانة الكتب ، ولجنة الميزانية ، ولجنة الأصول العامة ، فكان عضواً فى سبع لجان من إحدى عشرة لجنة .

تعصبه للغة العربية :

كان يحب اللغة العربية ويتعصب لها تعصباً جعله يصف من يتهاون فى أمر من أمورها بالزندقة والإلحاد . وكان يعتبر التساهل وفتح الباب للغات الأجنبية ، لغزو اللغة العربية ، جريمة شنيعة ، ومن يرجع إلى محاضر جلسات السنة الأولى للمجمع اللغوى — يجد أنه جاهد جهاداً شديداً حتى جعل المجمع يوافق على عدم اللجوء إلى التعريب إلا لضرورة قصوى ، وكان يعجب من القوم الذين يعيبون على المجمع استعمال ألفاظ غريبة لمسميات جديدة ، لأنه كان يرى أن هذه الألفاظ وإن بدت غريبة الآن فإنها بالاستعمال والمران تسهل على السمع وتجرى على اللسان ، وهى أصون للغة من الدخيل ، وله فى مسألة التعريب مواقف مشهودة وقفها فى نادى دار العلوم القديم الذى كان يرأسه المرحوم عاطف بركات باشا ، وفى المجمعين اللغويين الأهليين القديمين اللذين رأسهما المغفور له العلامة الشيخ سليم البشرى ولطفى السيد باشا ؛ ومبدؤه هذا كان يبثه فى تلاميذه ، ويحضهم على الاستمساك به . حتى لتجد جمهرتهم إن لم يكن كلهم من رأيه ومبدئه .

مؤلفاته :

وأول كتبه كتاب تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى ، ثم ألف كتابا عن اللهجات العامة ، قدمه لمؤتمر المستشرقين سنة ١٩١١ ، ورأيته عنده مخطوطا ولم يقع نظرى عليه منذ سنتين . ثم ألف كتابا للمطالعة للمدارس الثانوية فى عده أجزاء ، وسماه « نزهة القارىء » طبع منه جزءين نفدت منهما طبعات ، قررته وزارة المعارف سنة ١٩٣٤ ، ولكن أموراً شكلية تتعلق بشروط قائمة بينه وبين (مكملان) حالت دون التنفيذ .

وألف كتاباً عاماً فى الأدب العربى فى جميع عصوره ، يقع فى بضعة آلاف صفحة ، وكان فى نيته أن يطبعه ، واشتغل فى السنة الأخيرة من حياته بوضع مقدمة له ، وصفها هو بأنها : تقع من تاريخ الأدب موقع مقدمة ابن خلدون

من التاريخ العام ؛ وأعد العدة لذلك، ولكن عاجلته المنية ، فاقتطعته دون الأمنية .

وله بعد ذلك مؤلفات فى فقه اللغة كان يضعها لتلاميذه ، لكنه لم يجعلها كتاباً عاماً لاعتقاده أن هذا من شئون الخواص . واشترك مع غيره فى وضع كتب مدرسية فى التاريخ العام وتاريخ الأدب والنصوص الأدبية أكثرها يدرس اليوم وليس المقام هنا مقام البحث فى هذه الكتب ، ودراستها، ولكنه مجرد سرد موجز لما عمله .

أخلاقه وصفاته وعلمه :

كان هينا ، ليناً ، صريحاً ، أبيا ، عذب الحديث ، بارع الجد ، حلو الفكاهة سريع الخاطر ، حاضر النكتة ، ظريف التفصيل والجملة ، مال إلى العزلة ، فكان يقضى فى بيته أياماً لايبرحه ، وكان كثير القراءة ، تمر به أيام يقرأ فيها خمس عشرة ساعة أو أكثر فى اليوم ، وكان سريع التعليق ، يقتنى مكتبة عظيمة ، وليس فيها كتاب لم يقرأه ولم يعلق عليه .

وكان أهم ما يعنى به فى قراءته بعد أن استوعب الكتب القديمة مطبوعة وخطية — هو الكتب المترجمة ، وكان أول مايقرأ فى الصحف ، برقياتها الخارجية

أما معلوماته العامه فواسعة المدى ، فهو سياسى مع الساسة ، وأثرى مع علماء الآثار ، ومصور مع علماء التصوير ، واجتماعى مع رجال الاجتماع ، وهو كذلك رياضى وطبيعى وكيميائى ومؤرخ ، وكانت له فى كل هذه العلوم مشاركة تامة تدل على استبحاره ، والموضوعات التى عالجها فى كتابه نزهة القارىء ، والكلمات التى وضعها فى مجلة المجمع ، ورسالته الأخيرة التى قدمها للمؤتمر الطبى العربى ببغداد — كل هذا يشهد بأنه كان ذا نشاط جم ، وعقل جبار .

ومجالسه مع أصدقائه تشهد بما كان له بينهم من جليل القدر ، وعظيم الأثر حدثنى أحد الفضلاء أنه شكا إليه يوما تخبط الكتب الانجليزية واضطرابها فى شرح نظرية دارون ، وأنه تعب كثيرا فى التقصى والبحث إلا أنها لم تصر جلية فى ذهنه كما يجب ، فأفاض الشيخ فى شرح هذه النظرية ببيانه المعروف عنه ،

وتوضيحه وتذليله وتصويره للحقائق فى أيسر صورها ، حتى ترك صاحبه ومن كانوا معه يقولون : كأن داروين لم يفض بحقيقة نظريته إلا له ، فاختصه الله بالقدرة على تفهيمنا .

وحدث صديق له قال : صحبته وبعض خلصائه يوماً إلى دار الخيالة ، وما كدنا نصل إليها حتى أبدى أحدنا غرابة مما وصل اليه العلم من عرض الصور الصغيرة وتكبيرها ، ثم تسجيل الصوت ؛ فما كاد يسمع منه ذلك حتى انطلق يشرح لهم نظريات عن فن التصوير والعدسات وأنواعها وكيفية استعمالها ، ثم عن التقاط الأصوات فى (الأستوديوهات) وما يعانيه الممثلون والممثلات . والتف حوله جمع من الناس ، وأقبلوا عليه بمجامعهم ، يستمعون منه ، معجبين به بل ود بعضهم لو أبطل صاحب الخيالة خيالته ليتم هو حديثه .

من ذلك تعلم أنه تبوأ مكانه بجدارة بين علماء عصره ، وكان ركنا عظيما تعتمد عليه وزارة المعارف والمجمع اللغوى والهيئات العلمية والأدبية .

وكان إذا أراد أن يعالج موضوعاً عالجه غيره من المحدثين ، لا يطلع على ما كتبه ذلك الغير ، إلا بعد أن يكتب ، وكان فى كبره لا يهاجم من يخطئون كما كان يفعل أيام شبابه ، ولكنه كان يرد عليهم فى أثناء بحثه من غير إشارة اليهم . ومن غير أن يمسهم من قرب أو من بعد .

وكان موضع الثقة من كثير من العلماء الأعلام ، يراسلونه ويستفتونه فى كثير من المسائل التى يشتبه عليهم الأمر فيها ، أو لا يهتدون إلى مصادرها . ومن هؤلاء الفضلاء الأب أنسطاس مارى الكرملى ؛ فإن رسالاته لم تنقطع عنه حتى فى أيام مرضه الأخير ، وكان الأب على جلالة قدره يعترف له بالفضل والأستاذية ، كما كان يعترف غيره ـ كتب إليه يوماً يقول : « . . . جاء فى كتابك وفيه من سبحات النور ما جعلنى أدعو الله أن يزيدك فضلا وعلماً للمستجيرين بك واللائذين إلى بحر عرفانك الجم ، » ولو كان في الاسلام فى عصرنا هذا عشرة مثلك فى مصر ـ لانتقل الحنفاء جميعهم إلى هذه الديار المباركة للاقتباس من فيض نورك المتدفق . . . الخ » .

وكان فى جلسات المجمع الأصلية والفرعية إذا أشكل أمر ، أو أظلمت مسألة خرج هو على الأعضاء بما يزيل اللبس . ويكشف الغموض والابهام ، وكانوا جميعاً يعترفون له بالسبق ، ويعتبرونه جهيزة تقطع قول كل خطيب . قال الدكتور منصور فهمى بك عضو المجمع اللغوى فى معرض رثائه : « . . . إنا أمس الأول — حين جمعتنى وبعض زملائك حلقة من حلقات المجمع اللغوى — كنا القول فيما كنا نتذاكر فيه : انتظروا السكندرى ، وارجئوا المسألة فعند نسكندرى علم ما أشكل علينا ، ولديه حل ما استعصى علينا ، والآن يموت حلال المشكلات ، والمرتجى فى اللغة للمستعصيات . . . الخ »

وعند ما سافر سنة ١٩١١ إلى مؤتمر المستشرقين فى بلاد اليونان ، بصحبة المغفور لهم : (الأمير فؤاد « جلالة الملك فؤاد) ، وأمير الشعراء أحمد شوقى بك ، وأحمد زكى باشا ، وحفنى ناصف بك ، وغيرهم ، خطب فى موضوع اللغة العربية الفصحى ، وقلة انتشارها بين الغالبية العظمى من أهل الممالك الإسلامية المختلفة ، وعرض على جماعة المستشرقين استفتاء فى رأى المرحوم يعقوب أرتين باشا ، وكيل وزارة المعارف إذ ذاك ، فى : « هل يجوز أن تحل فى كل بلد لغة أهله العامية ، وهى لغة السواد الأعظم ، محل اللغة الفصحى : فى الكتابة ، وتستعمل فى المخاطبة ؟ » وذكر لغات هذه البلاد العامية ولهجاتها المختلفة ، وأدب كل لغة فى نثرها ونظمها ، وقرأ ذلك من كتاب له غير مطبوع ... قال إن يعقوب باشا كلفه بوضعه عن لغات هذه الشعوب الإسلامية العامية ، فقضى فى بحث هذه اللغات واللهجات بضع سنين ، واقتبس منها ما دونه فى كتابه المذكور ، وهى لغات العامة فى بلاد العرب والشام والعراق ومصر وتونس والجزائر ومراكش وغيرها من البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية بلهجتها العامية الخاصة بها ؛ وقد اهتم المستشرقون بهذا البحث ، وناقشوه فيه ، وقضوا وقتاً طويلا فى مباحثته ومساجلته ، ثم انتهوا من ذلك إلى قرار صريح بأن : « اللغة العربية الفصحى هى اللغة التى تصلح للبلاد الإسلامية العربية للتخاطب والكتابة والتأليف ؛ وأن من واجب حكومات هذه البلاد أن تعنى بنشرها بين الطبقات الشعبية ، لتقضى

على اللهجات العامية التى لا تصلح كلغة أساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والأخلاق » ؛ وكان هذا القرار فوزاً بالغا له ، سر به المجمع ، لأنه كان تعزيزاً لرأيه ضد رأى أرتين باشا ، وهو تصير اللغة العامية ، واحلالها محل اللغة العربية الفصحى .

وفاته :

وفى منتصف الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ١٨ من صفر سنة ١٩٥٧ — ١٩ من ابريل سنة ١٩٣٨ : لحق بالرفيق الأعلى ، على أثر مرض ألزمه الفراش أسبوعين ولم يجد دواء الطبيب ، فلكل أجل كتاب :

دخل الدنيا أناس قبلنا رحلوا عنها وخلوها لنا
فنزلناها كما قد نزلوا ونخليها لقوم بعدنا

الناصرية محمد احمد برانق

أصحاب الفيل

قصة تمثيلية – مقتبسة من السيرة النبوية

فى ثلاثة فصول

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

تمهيد : —

زمن القصة : — منتصف القرن السادس الميلادى

مكان القصة : — بلاد العرب : « مدينة صنعاء باليمن . ومكة المكرمة »

أشخاص القصة : —

أبرهة : ملك الحبشة فى اليمن	سائس الفيل
وزيره	جنود حباش
حجابه	عبد المطلب : سيد قريش
صناع	اعراب
احباش	رعاة
حارس الكنيسة	هواتف
قائد الجيش	بشراء

التعريف بالقصة :

هذه قصة « أصحاب الفيل » الذين أنزل الله فى شأنهم على نبيه الكريم :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ؟ »

وقد اقتبست موضوع هذه القصة من السيرة النبوية ، ونظمتها شعرا تمثيلياً فى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى مدينة « صنعاء » باليمن ، حيث بنى أبرهة كنيسة يصرف الناس بها عن الكعبة لينقل الخصب والرخاء إلى بلاد خاضعة لسلطانه ، وحيث غضب العرب لكعبتهم فتآمروا وأحرقوا الكنيسة ثم كان تصميم أبرهة على الانتقام بهدم الكعبة .

أما الفصل الثاني : فتقع حوادثه فى مكة ، إذ يزحف جيش أبرهة أمامه الفيلة فيذهب فى طريقه بجمال « عبد المطلب » ، ثم إذ يترك عبد المطلب الدفاع عن البيت مطالباً ابرهة بجماله ، لأن للبيت رباً يحميه ثم إذ يرسل الله على أبرهة وجيشه ، جند السماء : « طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »

أما الفصل الثالث : فانه يصور البشرى بهلاك القوم ، ونجاة الكعبة : نجاة كانت فاتحة عهد جديد ، وإرهاصاً لقدوم « أكبر نبى فى العالمين » ، فقد ولد فى ذلك العام : « عام الفيل » محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب العربي الكريم .

هذا وإنى لأتقدم بهذه القصة إلى الناطقين بالعربية ، راجياً أن أكون قد وفقت لتحقيق بعض ما نطمح إليه جميعاً : من أحياء تراثنا التاريخي المجيد ، بأسلوب يساير روح العصر الجديد .

الفصل الأول

المنظر الأول :

فى مدينة صنعاء باليمن قصر أبرهة : الملك، وزيره ، حجاب . حجاج من عرب اليمن يمرون امام القصر منشدين فى طريقهم إلى مكة :

الحجاج ينشدون :

« هَيَّا هَـلا يارِفَاقْ تَأَهَّـبُوا لِلرَّحِيـلْ »
« اليَـوْمَ يَصْفُو التَّلاقْ فِى بَيْتِ إِسْمَاعِيـلْ »

***

هَـذَا مَقَامُ الْخَلِيلْ يَشِعُّ مِنْـهُ الضِّيَاءْ
فَيَجْتَلِيهِ النَّزِيـلْ عَلَى رُبَا صَنْعَـاءْ

***

يَا كَعْبَةً نِلْنَـا فِى ظِلِّهَا الْمَجْـدَا
قُومِي انْظُرِى : إِنَّا نَطْوِى لَكِ النَّجْـدَا

***

أَلَّفْتِ شَمْـلَ الصِّحَابْ مِنْ قَوْمِكِ الْعُرْبِ
عَاشُوا عَلَى الأَحْقَابْ فِى وَارِفِ الْحُبِّ

أبرهة لوزيره :

مِمَّنْ الْقَوْمُ تَنَادَوْا بِالرَّحِيلْ وَ إِلَى أَيْنَ يُرِيدُونَ السَّفَرْ ؟
مَا لَهُمْ يَنْشُدُونَ بِاللَّحْنِ الْجَمِيلْ مِثْلَ قُمْرِىٍّ تَغَنَّى فِى السَّحَرْ ؟

الوزير :

إِنَّهُمْ - مَوْلاَىَ - عُرْبُ الْيَمَنِ يَبْتَغُونَ الْحَجَّ لِلْبَيْتِ الْحَرَامْ
قَامَ رُكْنًا مِنْ قَدِيمِ الزَّمَنِ فَسَعَى النَّاسُ إِلَيْـهِ كُلَّ عَامْ

***

يهرَعَ الـكلُّ إليـهِ مُهْطِعِينْ أمَمًا شتَّى الْهوَى وَالنَّسَبِ
مِنْ بِقَاعِ الْأَرْضِ لبَّوْا مُسْرِعِينْ فمَشَى الْخِصْبُ لِأَرْضِ الْعَرَبِ

أبرهة :

أوَ يُزْهَوْنَ بِبنيانٍ عتِيقْ وَيباهون بهِ كلَّ الأُمَمْ ؟
سَوْفَ نَغزوهمْ بِبُنْيَانٍ تَضِيقْ عَنْ مَدَى آفاقِهِ أقْوَى الْهِمَمْ
أحْضِروا كلَّ صَنَاعْ وَابحَثوا بَـيْنَ الْبِقَـاعْ

الوزير :

إنَّ فِى مُلْكِكَ يا مَوْ لاىَ لِلْفَنِّ رِجَالاَ
مَثَـلاً أَعْـلَى إذا شِئْـنَا عَلَى الدُّنْيَـا مِثَالاَ
بُرْهَةً : تبْصِرُ فِى نَا دِيكَ أَصْفَاهمْ خيَـالاَ

« يرسل الوزير فى طلب الصناع » الوزير إلى الرسول :

إجْمَعِ الصُّنَّاعَ مِنْ كُلِّ رَصِينْ عَبْقَرِيِّ الذِّهْنِ مَوْهوبِ اليمِينْ

(ينصرف الرسول)

يسمع من جانب القصر أعراب ينشدون :

... ...

يَا كعْبَةً نِلْنَـا فِى ظِلِّهَا الْمَجْـدَا
قومِى انْظـرِى : إنَّا نَطْـوِى لَكِ النَّجْـدَا

⊛⊛⊛

أَلْفتِ شَمْـلَ الصِّحَابْ مِنْ قَوْمِكِ الْعرْبْ
عَاشوا عَـلَى الْأحْقَابْ فِى وَارِفِ الْحبِّ

أبرهة :

أَسْمَعُ الْأقْوَامَ : مِنْ دَانٍ وَنَاءْ ينْفثونَ السِّحْرَ فِى عَذْبِ الْغِنَاءْ

كُلَّمَا رَنَّ بِأُذْنِي شَدْوهمْ حَفَزَ الْهِمَّةَ مِنِّي لِلْبُكَاء
لِمَ لَا تُصْبِحُ صَنْعَاء هُنَا كَعْبَةَ الدُّنْيَا وَيَنْبُوعَ الثَّرَاء ؟

الوزير :

أَمْرُ مَوْلَايَ . إِذَا شَاء فَلَا يَقْتَضِينَا الْأَمْرُ جهْدًا أَوْ عَنَاء
بَيْنَ أَيْدِينَا نضَارٌ ذَائِبٌ وَلَنَا الْجنْد يُلبُّونَ النِّدَاء
إِنَّهَا صَنْعَاء : لَمْ تُبْصِرْ سِوَى عَهْدِكَ الْمَيْمونِ بَسَّامًا رخاء

الحاجب :

حَضَرَ الصُّنَّاع يَا مَوْلَاى ، فَأْمرْ مَا تَشَاء

(الصناع يدخلون)

أبرهة :

إِبْنُوا لَنَا دَارَةً لَمْ يَبْنِهَا مَلِكٌ مِنَ الْملوكِ تُسَامِى دَارَةَ الشُّهُب
إِبْنُوا هنَاكَ «كَعْبَةً» لِلنَّاسِ رَائِمَةً وَزَيِّنُوهَا بِصَافِى الدُّرِّ وَالذَّهَب

إِبْنُوا الكَنِيسَةَ نَصْرِفِ الأُمَمَا عَنْ كَعْبَةٍ يُزْهَى بِهَا الْعَرَب
فَإِذَا هَدَمْنا رُكْنَهَا انْهَدَمَا وَغَدَوْا وقَائم رَبْعِهِمْ خَرِبُ

الصناع :

سَوفَ نَمْضِى كَمَا أَرَدْتَ ، وَنَبْنِي شَاهِقًا يَأْكُلُ السِّنِينَ وَيُفْنِى
يَجْمَعُ الْمَجْدَ وَالْجَلَالَةَ صَرْحًا وَيَضُمُّ الْبَدَائِعَ مِنْ كُلِّ فَنّ

المنظر الثانى :

« الكنيسة قائمة على أفخم طراز . أحباش أمامها ، أعراب في أحد جوانبها »

حبشى (يباهى بالكنيسة) :

يا بِنَاءً بِهِ بَلَغْنَا السَّمَاء   قُوَّةً وَاسْتِطَالَةً وَاعْتِلَاءَ

سَوْفَ يَسْعَى لَكَ الْحَجِيجُ فَتُمْسِي   كَعْبَةُ الْعُرْبِ بَعْدَ هَذَا هَبَاءَ

أعرابي لصاحبه « هامساً فى غيظ » :

أَسَمِعْتَ الْمَفْتُونَ يَزْهَى بِبَيْتٍ   ظَنَّهُ خَالِدًا عَلَى الْأَحْقَابِ ؟

إِنَّنِي إِنْ سَكَتُّ عَنْهُ فَإِنِّي   لَسْتُ أَهْلًا لِنِسْبَةِ الْأَعْرَابِ

زميله :

دَبِّرِ الْيَوْمَ مَا تُرِيدُ فَإِنِّي   يَا رَفِيقِي لَدَيْكَ رَهْنُ الْإِشَارَةْ

إِنَّنَا مَعْشَرَ الْأَعَارِيبِ أَقْوَى   مَنْ يَخُوضُ الْوَغَى وَيَحْمِي ذِمَارَهْ

رفاقهما :

يُبَاهُونَ بُنْيَانًا يَدُ اللهِ وَطَّدَتْ   دَعَائِمَهُ فِينَا فَأَمْسَى لَنَا كَهْفَا ؟

لَسَوْفَ نُوَافِيهِمْ بِنَارٍ شُوَاظُهَا   يُحَرِّقُ مَا شَادُوا، وَيَنْسِفُهُ نَسْفَا

« ينصرف الناس جماعات ، ويبقى الأعرابى وأصحابه بعيدين يرقبون الظلام يهبط »

أعرابي :

قَدْ أَتَى اللَّيْلُ فَارْقُبُوا   حَارِسَ الْقَوْمِ

زميله (هامساً)

قَدْ رَقَدْ

ثان :

أَشْعِلُوا النَّارَ وَاهْرُبُوا   لَحْظَةً مَا بِهَا أَحَدْ

يشعلون النار ويفرون منشدين :

ثَأَرْنَا الآنَ لِلبَيْتِ الْحَرَامِ   لِيَحْيَ الْبَيْتُ مَحْمِيَّ الذِّمَامِ

المنظر الثالث :

« قصر أبرهة ـ رجال الحاشية ـ حارس الكنيسة بين يدى أبرهة »

الحارس :

مَـــوْلاَىَ : أَيْدِ خَسِيسَهْ   تَطَاوَلَتْ   لِلْكَنِيسَهْ

فَأَحْرَقَتْهَا   بِلَيْـــلِ   ... ...

أبرهة (فى لهفة) :

... ...   يَا لَهْفَهَا   مِنْ   فَرِيسَهْ

وَكَيْفَ ضَاعَتْ بِلَيْلٍ ؟   أَلَمْ تَكُونوا شُهُودَا ؟

أَمْ كُنْتُمُ فِى سُبَاتٍ ؟   تَعْسًا إِلَيْكُمْ جُنُودَا

الحارس فى (اضطراب) :

مَوْلاَىَ أَحْرَقَهَا الأَعْرَابُ وَانْطَلَقُوا   تَحْتَ الظَّلاَمِ فَلَمْ نُدْرِكْ لَهُمْ أَثَرَا

أبرهة : (مؤنباً) :

ضَيَّعْتُمُوهَا   بِنَــــوْمٍ   وَمَنْ غَفَا كَيْفَ يَسْمُو ؟

تُرَى : أَيَنْفَعُ لَوْمِى ؟   وَأَيْنَ يَنْفَعُ لَوْمُ ؟

(غاضباً) :

تَأَهَّبُوا   وَاسْتَعِدُّوا   لِنَهْدِمَ   الْبُنْيَانَـا

لَنْ يَهْدَأَ الْقَلْبُ بَعْدُ   حَتَّى   نَرُدَّ   الْهَوَانَا

قائد الجند :

سَيُمْسَحُ   الْعَارُ   عَنَّا   وَيُسْحَقُ   الأَعْــدَاءُ

فَاهْدَأْ (مَلِيكِى) فَإِنَّا   هُنَـا   جَمِيعًا   فِــدَاءُ

« ستار »

انتهى الفصل الأول

فهرست